جامعة المنصورة
كلية التربية
قسم اللغة العربية والدراسات الاسلا...

الأم فى الباب النحوى

الدكتور
سعد حسن حمودة
كلية التربية جامعة المنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

صدق الله العظيم

(سورة البقرة – أية :٣٢)

المقدمة

أكتب هذه المقدمة في شهر رمضان المبارك ، وهو شهر أحسب النفس تقترب فيه من الفطرة القويمة بين إنكار الذات وإثباتها ، وعلوية الإيثار وفضائلها ، والاعتراف بأفضال الناس في أعماق نفوسنا، وما يترتب على ذلك من قضاء للحقوق أو لبعضها.

ذلك أنه يعود فضل اختيار موضوع الأم في الباب النحوى إلى زميل عزيز ، وأستاذ لى كريم هو الأستاذ الدكتور صلاح بكر من سنوات طويلة ، حين جمع بيننا العمل في كلية الدراسات العربية بجامعة المنيا، ويومها كان رئيسا لقسم النحو والصرف والعروض . فاليوم أذكر له فضله وأذكره بأنه صاحب فضل . ينضاف إلى ذلك أن الفكرة صادفت منى ما أغرانى بالبحث، لجدة فيها – أولا – ثم هى بمثابة الخوض في أعماق النحو – ثانيا – الذى يزيد العود صلابة، ومن ثم فقد يهيئ ذلك شيئا من الدراية بطبيعة الموجات المتلاحقة من نظريات الدرس الحديث هنا وهناك ، وهو ما يعد نظراً جديدا في الدرس النحوى ، كـ(نحو النص) والتحول من نحو الجملة إلى نحو النص ، وغير ذلك مما يشغل أقلام المتخصصين أهل الدراية.

والحق أن النظر الحديث له أربابه ، ولكننى فقط أود أن أوكد على أن هذا النظر الحديث يجب أن يبدأ بمعرفة القديم معرفة تمكن له من الوقوف على حقيقة النظر الوافد ، وربما كان السبب في هذا الكلام ما وقعت عينى عليه وأنا أتابع بعض النصوص في كتاب (نحو النص) فقد ذكر مؤلف الكتاب أنه (فى النحو القديم تداخلت الجملة مع الكلام، ثم أستقل كل منهما

بشكل حاسم على يد جمال الدين بن هشام ..) [1] وتؤكد النصوص أن هـــذا الاستقلال كان عند سيبويه ، بيد أن مصطلح الجملة هو الذى لم يظهر حقيقة إلا عند المبرد قبل ابن هشام بنحو أربعة قرون ويزيد . وكان سيبويه من قبل المبرد إذا تكلم عن الجملة ذكر الكلام ، ولكنك تستطيع أن تفهم أنـــه بصـــدد الحديث عن الجملة . ثم إن مسألة الاستقلال الحاسم هذه ، لا أظن أنها تحتاج هذه القرون الطويلة وهى تقطع طريق الاستقلال . إننى أحسب أن ظـــهور المصطلح أعنى مصطلح الجملة عند المبرد يمثل ذلك الاستقلال ، لأن ظهور المصطلح بشكل عام يمثل زُبدة استواء الفكرة على سوقها.

ويتابع مؤلف الكتاب كلامه عن (الاتجاهـــات والمفـــاهيم) فـــي تعريف الجملة ، فينقل عن بعض أصحاب هذه الاتجاهات قوله: (والجملـــة عبارة عن فكرة تامة ، أو تتابع من عناصر القول ، تنتهى بســـكتة أو نمـــط تركيبى ذو مكونات تشكيلية)[1]. فلا أرى جديداً في تعريف الجملة إلا مـــا كان من صياغة لفظية حسب . وغير ذلك مما لا يحتمله المقام.

إن فكرة البحث ربما أوحت بفكر شتى ، فقد تراءى لى الشـــيوع فكرة مهمة . وإن كان معروفا في اللغة ، إلا أن سيبويه أعطى لـــه مدلـــولا جديدا ، حين جعله مقصوراً على شبيه اللفظة في الاســـتعمال، فحيـــن ذاك يكون ذلك النحو الخاص لهذه اللفظة الذى ألمح إليه سيبويه . ثم رأينا التمكن طلاقة في الاستعمال ، فتلك قدرة خاصة للفظة دون أخرى ، ناهيك عن فكرة الحمل على المعنى ، أقصد معنى الغير، فقد مر بنا في البحث أن إلا ومـــا بعدها مثلا في معنى الوصف المحمول على (غير) (ومثل). وقد قال ســـيبويه ذلك واستشهد بقوله تعالى – دليلاً على هذا – :

---

[1] الدكتور أحمد عفيفي: نحو النص ، اتجاه جديد فى الدرس النحوى ص١٧ مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠١ مصر

[1] نحو النص : ص١٧

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) [الأنبياء٢٢].
وغير ذلك مما أخاله فكراً تلفت إلى أهمية الدرس.

وقد وقع البحث في فصول على النحو التالى :

الفصل الأول : همزة الاستفهام.
الفصل الثانى : إلا فى الاستثناء.
الفصل الثالث : إنْ الشرطية.
الفصل الرابع : أَنْ الناصبة.
الفصل الخامس : باء القسم.
الفصل السادس : واو العطف.
الفصل السابع : ياء فى النداء.
الفصل الثامن : كان أما فى الباب.

ثم كان الانتهاء بخاتمة توجز لنا أهم النتائج التى آل إليها البحث ، يتبعها ثبت بأهم المصادر والمراجع ، ففهرست بالموضوعات .

والحمد لله في البدء ، والحمد الله في الانتهاء ، الذى كان في بدء العشر الأواخر من رمضان .. الحمد الله على هذا اليُمن ، ثم الحمد الله، ثم الحمد الله... اللهم بلغنا بدءاً أغرَّ فى كل بدء ، واجعل له انتهاء على نحو ما كان البدء.. اللهم بلغنا رمضان في كل بدء وكل انتهاء حتى يكون أمرك بالانتهاء . وصلى اللهم على سيدنا محمد خير بدء وخير انتهاء.
صباح يوم الاثنين : العشرون من رمضان المعظم ١٤٢٣هـ
الخامس والعشرون من نوفمبر ٢٠٠٢م

د. سعد حسن حمودة

الفصـــل الأول

همزة الاستفهام

الهمزة أصل الاستفهام. ذلك تقدير شيخ النحاة الذى تابع عليه خالفوه. وأصالتها من قبل أنها " حرف الاستفهام الذى لا يزول عنه إلى غيره ،وليس للاستفهام في الأصل غيره.."[١] . وعلى ذلك يمكن القول بأن من أول اختصاصات الهمزة:

* أنها لا تنصرف إلى غير الاستفهام ،كما تنصرف "هل" مثلا إلى معنى " قد ، على نحو ما جاء في سورة الإنسان من قوله تعالى:(**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ**)[٢] [الإنسان الآية١] يقول أبو حيان :" وقال ابن عباس وقتادة هى هنا بمعنى قد .قيل: لأن الأصل أهل ؟ فكأن الهمزة حذفت .. فالمعنى : أقد أتى ؟ على التقدير والتقريب جميعا، أى أتى على الإنسان قبل زمان قريب حين من الدهر لم يكن كذا ..)[٣] .

ويؤكد أنها أصل الاستفهام ، أنها تُركت "فى: مَنْ ومتى"، و"هل" ، أو نحوهن ، حيث أمنوا الالتباس"[٤] ولذلك أدخلوها على " مَنْ" إذا تمت بصلتها " كقول الله عز وجل :(أَفَمَنْ يُلْقَى في النار خيرٌ أَمَّن يأتى آمنا يوم القيامة). ويقول: أم هلْ.. ولكنهم تركوا الألف استغناء، إذا كان هذا الكلام لا يقع إلا في الاستفهام."[٥]. إن دخولها على أخواتها في الاستفهام لآكد على أصالتها ، ولو كان غير ذلك لرأينا أخواتها يدخلن عليها، وهذا ما لم يقع في الاستعمال.

---

(١) الكتاب:١/٥١

(٢) سورة الإنسان آية١

(٣) البحر المحيط :٨/٣٩٣

(٤) انظر الكتاب:١/٥١

(٥) الكتاب :١/٥

- إذا وقع بعد الهمزة اسم ،ثم وليه فعل، على هذا النحو:

همزة استفهام + اسم + فعل

فهذا قبيح في الاستعمال؛ إلا أن يكون في شعر . فإن وقع في شعر ، فإن الاسم في هذه الحال يختص بما لم يختص به إذا كان الاستفهام بغير الـــهمزة .فهو بعد الهمزة يجوز فيه:

أ- الرفع.

ب- والنصب

على حين يكون بعد هل مثلا منصوبا ليس غير. يقول ســـيبويه فـــي هـــذا الصدد:" لو قلت: هل زيدُ، قام، وأين زيدٌ ضربته ، لم يجز إلا في الشـــعر، فإذا جاء في الشعر نصبته، إلا الألف ، فإنه يجوز فيها الرفع والنصـــب لأن الألف ، قد يُبتدأ بعدها الاسم ."[١] فهذا اختصاص الهمزة بالدخول على الاسم والفعل.

- وتختص الهمزة بتمام التصدير " تقول : أعبد الله ضربته.. وأعمراً قتلت أخاه.. ومثل ذلك :ما أدرى أزيداً مررتُ أم عمـــراً..[٢] إذ ليـــس فـــي الاستعمال : أم أعمراً ، فلا تتقدم عليها أم. ولذلك عقد سيبويه بابا أســـماه " هذا باب بيان (أم) لمِ دخلت على حروف الاستفهام ، ولم تدخل علـــى الألف "[٣] يقول تحت هذا الباب :" تقول : أم مِنْ تقول، أم هل تقـــول؟ ، ولا تقول : أم أتقول ؛ وذلك لأن "أم" بمنزلة الألف ، وليست "أى "و"مِـنْ" و" ما" و"متى" بمنزلة الألف،إنما هى أسماء بمنزلة هذا وذاك [٤].

---

[١] الكتاب : ٥٢/١

[٢] الكتاب :٥٢/١

[٣] الكتاب :٤٩١/١

[٤] السابق

• ومن خصائصها أنها تحذف "أم" دليل عليها يقول سيبويه :" وزعم الخليل أن قول الأخطل:

كَذِبتْك عينُك أم رأيت بواسط　　غلس الظلام من الرَّباب خيالا

كقولك : إنها لإبل أم شاء. ومثل ذلك لكُثير عزة:

أليس أبى النَّصْر أم ليسَ والدى　　لِكُلَّ نجيبٍ من خزاعةَ أزْهرا

ثم يقول سيبويه :" ويجوز في الشعر أن يريد بـــ" كذِبَتْك" الاستفهام، ويَحْـذف الألف. قال التميمى الأسود ابن جعفر):

لعمرك ما أدرى ، وإن كنت دارياً　　شُعَيْثُ بن سهْمٍ أم شُعَيْثٌ بن منْقرِ

وقال عمر بن أبى ربيعه:

لعمرك ما أدرى ، وإن كنت دارياً　　بسبْعٍ رَمَيْنَ الجمْر أم بثمانِ[1]

ففى هذا شاهد على حذف الهمزة وأم دليل عليها.

* وتختص الهمزة بدخولها على حروف العطف ،نحو قولك " هــل وجــدت فلانا عند فلان ، فيقول :أو هو ممن يكون عند فلان - وهذه الواو لا تدخــل على الف الاستفهام ، وتدخل الألف عليها .. فهذه الواو بمنزلة الفاء في قوله تعالى : **(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ)**[2] "[3]

والهمزة عند المبرد متمكنة ، وهذا التمكن يجعلها "تدخل علـــى كــل ضرب منه ، وتتخطى ذلك إلى التقرير والتسوية ."[4] ويبدو أن هذا التمكـــن

---

[1] الكتاب : ٤٨٤/١-٤٨٥

[2] الاعراف ٩٩

[3] الكتاب : ٤٩١/١

[4] المقتضب :٥٣/٢، ٣٠٧/٣

هو الذى سوغ للهمزة ألا تفارق الاستفهام ، ولا تتصرف إلـــى غـيره وإن أشرك المبرد (أمْ) معها في هذا الاختصاص . يقول :" الألــف و"أم" حــرف الاستفهام اللذان يستفهم بهما عن جميعه، ولا يخرجان منه . وليس كذا ســائر حروف الاستفهام ." [١] نخلص من هذا إلى أن من أهم اختصاصات همـــزة الاستفهام عند المبرد.

- تمكنها في الاستفهام الذى لا تتصرف إلى غير معنـاه، كمـا تتصـرف أخواتها ، فتكون تارة جزاء، وطورا بمعنى الذى كـ(مِنْ) و(ما) و(أى)، ولذلك رأينا الهمزة تدخل على هذه الحروف " إذا صِرْن في معنى الـذى بصلاتهن . كقوله تعالى (**أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَـوْمَ الْقِيَامَةِ**)[٢] [فصلت ٤٠] "[٣] .

- ومن خصائصها أن تدخل على "أم" ؛ لأنها معادلة لها .ثـم هـى و" أم" يدخلان على جميع الاستفهام " لتمكنهما وانتقالهما فمن ذلك قوله:

هل ما علمت وما استوُدعتَ مكتومُ ... أم حبلها إذْ نأتْك اليومَ مَصْرُومُ

أمْ هلْ كبيرٌ بكى لم يقْض عَبْرتَهُ ... إثْرَ الأحبةِ يومَ البين مشكومُ

فأدخل "أم" على " هل"[٤] .

- ومن خصائصها أن تدخل على الواو والفاء يقول المبرد :" وهذه الألـف لتمكنها تدخل على الواو ، وليس كذا سائر حروف الاستفهام ، إنمـا الـواو تدخل عليهن في قولك : وهل هو عندك؟ فتكون الواو قبل "هل" . وتقـول:

---

[١] المقتضب :٢٨٩/٣

[٢] فصلت (٤٠)

[٣] المقتضب:٢٩١/٣

[٤] المقتضب: ٢٩١/٣-٢٩٢

كيف صنعت؟ .. وكذلك جميعها إلا الألف.. ونظير هذه الواو والفاء، وسائر حروف العطف.. (**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى..**)[الأعراف ٩٧] (**أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى**) [الأعراف ٩٨] فالواو ههنا بمنزلة الفاء في قولك (**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ**)[الاعراف ٩٦]"[١] . نحن - إذا - أمام :

الهمزة + الواو

الهمزة + الفاء

فإذا رأينا هاتين الصورتين ، فعند المبرد تكون هذه المعاني:

أ-الاستفهام المحض ،نحو "قولك- إذا قال الرجل-: رايت زيداً - فيقول : أو يُوصل إليه ؟"[٢]

ب- التعجب (والانكار . يقول المبرد:" فأما التعجب والإنكار فقول المشركين (أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الأوَّلُونَ)[الصافات ١٦،١٧]"[٣]

ج- التقرير ، كما في قوله: (أوأمن أهل القرى)

* ومن خصائص الهمزة عند المبرد أن تراها " تحتمل تقديم الاسم في نحو قولك : أزيد قام؟ .. وجميع حروف الاستفهام - غير ألف الاستفهام- لا يصلح فيهن إذا اجتمع اسم وفعل إلا تقديم الفعل، إلا أن يضطر الشاعر"[٤]

---

[١] المقتضب :٣٠٧/٣

[٢] المقتضب :٣٠٨/٣

[٣] المقتضب :٣٠٨/٣

[٤] المقتضب:٧٤/٢-٧٥

هذا ما رأيناه اختصاصا عند سيبويه والمبرد بين أن يكون أصلا عند سيبويه ، وتمكنا عند المبرد فالأصل عديل التمكن ؛ إذ لم نر إلا اتفاقا على الاختصاصات لدى كليهما.

أما الهمزة عند ابن الحاجب ، فهي أعم [١] وفسر الاستراباذي هذا العموم بأنها " تستعمل فيما لم يستعمل فيه هل" [٢] . ولذلك يرى أنه لا يجوز نحو: هل زيد خرج ؟

فلا يكون زيدُ - حينئذ - مبتدأ ، ولا فاعلاً لفعل مقدر. ذلك لما يأتي:

أولا : هل لا تدخل على اسمية خبرها فعل.

ثانيا : إن هل الأصل فيها أن تكون بمعنى "قد" ، ولذلك دخلت عليها الهمزة، فقيل: أهل ؟[٣]

وعلى ذلك يكون هذا الاستعمال الممتنع في وجود "هل" مسموحا به في وجود الهمزة ، ويكون اختصاصاً لها ، ونحن نعدد اختصاصاتها عند النحاة.

ويبدو أن ثمة علاقة بين الهمزة و"هل" تفهم من كلام النحاة. لعلها أَبْيَن هنا عند الاستراباذي أخالها على النحو التالي:

أولا : إن استعمال "هل" للاستفهام وأصالة الفعلية فيها مستمد من الاستخدام اللغوي المتمثل في صورة :[الهمزة +هل] ، ولذلك قالوا : أهَلْ ، في نحو قول الشعر:

---

(١) انظر الكافيه: ٢/٣٨٨

(٢) الكافيه: ٢/٣٨٨

(٣) انظر الكافيه: ٢/٣٨٨

اهل عرفت الدار بالغرّبين *

ويعني ذلك أن معنى الاستفهام الداخل في هل من قبيل ملازمة الهمزة لها ،" ثم حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال استغناء بها عنها، وإقامة لها مقامها."[١] فكأن الاستفهام في " هل" أصله الهمزة على ما يظهر لي من كلام الاسترابادي في أسلوب نحافيه نحو أهل الأدب في تناولهم للألفاظ إنه يقول:" فلما كان أصلها قد ، وهي من لوازم الأفعال، ثم تطفلت على الهمزة ، فإن رأت فعلاً في حيزها تذكّرت عهوداً بالحمى ، وحَنت إلى الألف المألوف وعانقته ، وإن لم تره في حيزها تسلّتْ عنه[٢].

ثانيا : كما أن امتناع دخول " هل " على اسمية خبرها فعل ربما كان من أصالة الفعلية في" هل " ولذلك امتنع (هل زيدٌ خرج) إلا في شذوذ.

ومن خصائص الهمزة عند ابن الحاجب والاسترابادي أنها:

- تستعمل في الاثبات للاستفهام وللإنكار، كما في قوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) . وقال الشاعر:

* أطرباً وأنت قِنَّسْرِيّ

وإذا دخلت على النافي فامحض التقرير ، أي حمل المخاطب أن يقربأمر يعرفه ،نحو (ألم نشرح لك صدرك)[٣]

- ومن خصائصها أيضا استعمالها مطرداً مع أم للتسوية [٤]

---

[١] الكافية : ٣٨٨/٢

[٢] الكافيه: ٣٨٨/٢

[٣] انظر هذا في الكافيه:٣٨٨/٢

[٣] السابق والصفحة

- وهى تدخل على حروف العطف على النحو الذى رأينا عند سيبويه والمبرد [١]
- وللهمزة الصدارة ، فلا تأتى بعد "أم" ، ويجوز ذلك في " هل"[٢]
- ثم يقول الاسترابادى :" ومن خواص الهمزة جواز حذف المفرد بعده اعتماداً على ما سبق من ذكر–نحو قولك منكرا أومستفهما : أزيداً لمن قال : رأيت زيداً.."[٣]

والهمزة أم الباب والغالبة عليه عند ابن يعيش[٤] وذلك من قبل أنها:

– يلزمها الاستفهام لا يفارقها.

- وهى معادلة للهمزة ،إذا كانت في نحو : أزيد عندك أم عمرو ؟ إذ المراد: أيهما عندك؟ وعلى ذلك ينتفى: هل زيد عندك أم عمرو.ولا ينتفى قولنا:أزيداً ضربت ؟ ويمتنع القول: هل زيداً ضربت ، لما فسرناه عند ابن الحاجب.
- وبالهمزة يكون التقرير ، ولايكون بـ"هل" ؛ إذ يُقال : أتضرب زيداً وهوأخوك ؟ ويمتنع هذا مع "هل" قال تعالى : (ألست بربكم) . وقال أيضا (أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخذُونى وأُمِّي الهَين من دُونِ الله).
- وهى التى لها الصدارة مع حروف العطف:

أ +و (أو كُلَّما عَاهَدُوا عَهْدا نبذه فريقٌ مِّنْهم)

أ +ف (أفمن كَانَ عَلَى بينَةٍ من ربِّه)

---

(١) السابق والصفحة

(٢) السابق والصفحة

(٣) السابقة والصفحة

(٤) شرح المفصل:١٥١/٨

أ + ثم (أثمّ إذَا مَا وقَع آمنتُم بِه)

- والهمزة هى التى ينقطع بها بعض الجملة ، فى نحو قولك : أبزيدٍ ؟ لمن قال : مررت بزيدٍ ، فتدخل على الجار والمجرور وهو بعض الجملة.

- وهى التى تكسب "هل" الاستفهام ؛ إذ تقدر معها ، ويكون الأصل : أهل ؟ على نحو ما رأينا عند ابن الحاجب والاستراباذى ، فلما كثر الاستعمال حذفت الهمزة .[1].

ولكن ابن يعيش يرفض أن تكون "هل" فى أصلها - بمعنى قد ، حيث يرى :أنها للاستفهام بطريق الأصالة "[2] لما يأتى:

أولا : محال أن يجتمع حرفان بمعنى واحد " ومن ثم لا تدخل الهمزة على "هل" وبذلك يمتنع هذا التركيب [أ+هل] باعتبار "هل" للاستفهام في الأصل عند ابن بعيس .في حين رأينا سيبوبه يقول بدخول الهمزة عى" هل." ثم شاع الاستعمال فحذفت الهمزة، وتابع على ذاك المبرد وا بن الحاجب والأستراباذى.

ثانيا: إن تفسير دخول "أم" على" هل" وهما حرفان

أم + هل

من قبيل أن "أم"فيها معنيان هما:

أ-الاستفهام

ب- العطف

---

(١) انظر هذا في:شرح المفصل :٨/١٥١-١٥٢

(٢) شرح المفصل :٨/١٥٢

فلما كانت الحاجة إلى معنى العطف فيها مع هل ، خلع منـــها دلالـــة الاستفهام ، وبقى العطف بمعنى " بل" للترك... وليس كذلك الـــهمزة ، لأنـــه ليس فيها إلا دلالة واحدة "[١]. وهنا يظهر لى أن كلام ابن يعيش في حاجـــة لمن يستدرك عليه ، ذلك أنه صرح برفضه دخول حرف على حرف وهمـــا بمعنى واحد. فهو يفسر دخول:

أم + هل

بأن أم متضمنة لمعنيين: أحدهما :العطف والثـــانى: الاســـتفهام، وأن معنى العطف لو كان مراداً لنحينا معنى الاستفهام فيها ، إن تنحيـــة معنـــى الاستفهام ليس دليلاً على زواله، إنه شئ عارض فرضه المعنـــى . إلا أنـــه يظل كامنا فيها بعد إن نحيناه. وبذلك يكون حرف دخل على حرف وكلاهمـــا بمعنىوإن كان هذا المعنى قد افترضنا تنحيته فى حين لا يكون الأمر هكـــذا مع الهمزة ، فلا تُلجئنا إلى هذه التأويلات .ومن ثَمَّ نرى أن ما قال به سيبويه وتابع عليه كثيرون،هو أقرب للتصور ، لأن الاستعمال اللغوى في شـــواهد النحاه يؤيد ذلك ، فقد جاء في كتاب شرح المفصل:

سائلْ فوارس يَرْبوعٍ بشدتنا   أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكمِ

ومن خصائص الهمزة أنها تحذف إن دل عليها دليل في ضرورة الشـــعر . وقد استشهد النحاة بقول عمر بن أبى ربيعة.

بدالى منها معصمٌ يوم جمَّرت   وكَفٌ خضبتٌ زُينت ببنان

فلما التقينا بالثنية سلَّـمتْ   ونازعنى البغلُ اللعين عِنانى

فوالله ما أدرى وإن كنت داريا   بسبع رمين الجمر أم بثمانِ

---

[١] السابق : ١٥٣/٨

والمراد أبسبع.[١]

ونصل إلى ابن هشام ، فنراه يقول " والألف أصل أدوات الاستفهام ، ولهذا خصت بأحكام."[٢] فمن خصائصها :

- جواز حذفها في حالتين:

الأولى : إذا تقدمت على " أم"

الثانية : إذ لم تتقدمها

فمثال تقدمها على "أم" قول عمر بن أبى ربيعة الذى أشرنا إليه آنفا ومثال عدم تقدمها ، قول الكُميت:

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبٌ ولا لعِباً منى وذو الشَّيب يلعبُ

أراد : أذو الشيب يلعبُ ؟[٣]

- ومن خصائصها أيضا أنها ترد لطلب التصور ،نحو : أزيدٌ قائمٌ أم عمرو، كما ترد لطلب التصديق ، نحو : أزيدٌ قائم [٤].

- وهى تدخل على الإثبات كما رأينا ،وعلى النفى ، نحو قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) وكنحو من قال:

ألا اصْطِبارَ لسلْمى أم لها جَلَدُ إذا أُلاقى الذى لاقاه أمثالى[٥]

- ولها الصداره على كل حال ،كما رأينا من قبل عند سيبويه وخالفيه.

---

[١] شرح المفصل : ١٥٢/٨-١٥٥

[٢] المغنى : ١٤/١

[٣] المغنى : ١٥/١

[٤] المغنى : ١٥/١

[٥] المغنى : ١٥/١

تلك - إذا - خصائص الهمزة في أشتات متفرقة من نصوص النحاه ، طوفنا معها كثيرا ، لنصل إلى معنى الأم في الباب النحوى ، وهو ذلك المعنى الذى يدور على مفهوم الاختصاص . وقبل أن نعرض لكلام المفسرين عن هـــذه الهمزة ، نرى أن تبرز أهم المعايير التى أكد عليها النحاة ، وهى تتمثل لنـــا على النحو التالى:

أولا: إنها تدل على جميع وظائف الاستفهام، فكلمات الاستفهام،إما أن تكـــون وظيفتها:

١-التصديق: هل والهمزة

٢- التصور: بقية كلمات الاستفهام أما الهمزة فتستخدم فيهما جميعا.

ثانيا : لا تنصرف إلى معنى غير الاستفهام . وهذا يؤكد على أصالتها فـــي هذا المعنى ؛ إذ ينتفى كونها أصلا ،ثم تنصرف عنه.

ثالثا : الصدارة .

رابعا : ألا ترى أن الأصل لو حذف ، حق أن يكون عليه دليل؟ إن ،أم" لدليل على حذف الهمزة ،وإن هذا أيضا لهو حق التمكن الذى قال به المبرد.

خامسا: إنها لا تنازع فيما تفردت به من استعمالات قصرها عليها اللســـان العربى.

سادسا: ثم هى تكسب غيرها من صفتها .كيف لا . وهى أم تمنح غيرها .ألم نر هذا في "هل" ؟ إن جمهور النحاة على أن هل أخذت الاستفهام من الهمزة حيث كانت أهل .

هذا ما أحسبه إجمالا لما قال به النحاة ،وهم يكتبون عن الهمزة - أمـــا في الباب- جمع به ما تفرق من خطوط الصورة ، فقد نرى خطوطا أخـــرى لصورة أخرى ،حين نتوجه للدرس عند المفسرين ، على النحو المعهود فـــي البحث إن شاء الله.

في قول الله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) [البقرة ٦].

يرى أبو حيان أن الهمزة قد يصاحبها المعانى الآتية :

١- التقرير ،كما في قوله (أأنت قلت للناس) [المائدة ١١٦]

٢- التحقيق ،كما في قول القائل

* ألستم خير من ركب المطايا*

٣- التسوية ، كما فى قوله (سواء عليهم أأنذرتهم) [البقرة ٦]

٤- التوبيخ ،(أذهبت طيباتكم) [ ]

٥- الإنكار، نحو أن تقول : أزيدنيه ، لمن قال: جاء زيد

٦- الإنذار والإعلام مع التخويف ، فى مدة تسع التحفظ من المخوف، وإن لم تسع، سُمى إعلاماً وإشعاراً وإخباراً.[1]

وفى قوله تعالى (أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ) [ص٦٣]

يقول أبوحيان :" وقرأ النحويان وحمزة :" اتخذناهم " وصلا ... وقرأ أبو جعفر والأعرج والحسن وقتادة وباقى السبعة بهمزة الاستفهام ، لتقرير أنفسهم على هذا ، على جهة التوبيخ لها والأسف ؛ أى اتخذناهم سخريا ، ولم يكونوا كذلك ."[2].

وفى قول الله تعالى : (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)[الزمر ١٩]

---

[1] انظر هذه المعاني في البحر :١/٥٠.

[2] البحر : ٤٠٧/٧

يقول أبو حيان :" والظاهرَ أنها جملة مستقلة ... وقدر الزمخشــــرى بين الهمزة والفاء جملة ،حتى تقر الهمزة في مكانها ، والفاء فـــي مكانــها ، فقال :التقدير : أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه كلمة العـــذاب ... والـــذى تقوله النحاة أن الفاء للعطف وموضعها التقديم على الهمزة ،لكن الهمزة كما كان لها صدر الكلام قُدمت ، فالأصل عندهم: فأمن حق عليه ." ثم يقول أبـــو حيان :" وعلى القول أنها جملة مستقلة ، يكون قوله : (أفأنت تنقذ مَنْ فـــى النار) استفهام توقيف ، وقدم فيه الضمير إشعاراً بأنك لست تَنقْذه من النـــار ، بل لا يقدر على ذلك أحد إلا الله ."[1] وينقل أبو حيان عن الحوفى قولـــــه :" وجئ بألف الاستفهام ،لما طال الكلام توكيداً ولولا طوله لم يجز الإتيان بـــــها ."[2]

من هذه النصوص الكريمة نرى أن كلام المفسرين قد أضاف إلى ما قدمه النحاة من خصائص الهمزة - أما في الباب : ما يلى :

أولا : الإنذار والإعلام مع التحويف ، وشرط ذلك أن يكون في مدة تســـع التخفظ من الخوف .

ثانيا : الإعلام والإشعار والإخبار ،وذلك مشروط بألا تكـــون المـــدة تســـع التحفظ من المخوف.

ثالث : استفهام التوقيف ، ويبدو أن الضابط فيه أن يلى الـــــهمزة ضمـــير ، إشعاراً بأن طلاقه القدرة من خصائصه تعالى ، فمن ثم كانت وقفـــا عليه.

هذا ما أحسبه إضافة جديدة لخصائص الهمزة من لدن المفســـرين ، أسهموا بها ليزيدوا من رصيد الخصائص التى أتى بها النحاة.

---

[1] البحر :٤٢١/٧

[2] البحر : ٤٢١/٧

الفصـــل الثانـى

إلا في الاستثناء

إلا أم في الباب ، لأنه حرف الاستثناءالأصيل الذى ينقاس عليه، فكل ما جاء على معناه فهو مثله: اسما كان أم فعلا . ذلك ما قاله سيبويه " فحرف الاستثناء إلا "[١] فغير وسوى اسمان فيهما معنى الاستثناء وكذلك" ما جاء من الأفعال فيه معنى "إلا " و " لا يكون" وليس ، وعدا ، "وخلا". وما فيه ذلك المعنى من حروف الإضافة ، وليس باسم فحاشى دخلا في بعض اللغات؟"[٢].وذلك معنى الأم في إلا ، كما قدمه سيبويه ، وكما سنرى في نصوص خالقيه.

من خصائص " إلا "

- ومن خصائصها أن تكون عاملة في الاسم الذى بعدها " كما تعمل عشرون فيما بعدها ،إذا قلت : عشرون درهما "[١].

فهذا تفسير" أن يكون الاسم بعدها خارجا مما دخل فيه ما قبله ، عاملا فيه ما قبله من الكلام"[٢] ومعنى هذا أن :

أ- المستثنى خارج من حكم المستثنى منه.

ب- وأن إلا" هى العاملة في المستثنى ، لأن " إلا" هى التى قبله من الكلام ، كما قال سيبويه، ولأن حكمها إذ ذاك حكم ما تعمل عشرون فيما بعدها".

---

(١) الكتاب: ٣٥٩/١

(٢) الكتاب: ٣٥٩/١

(٣) الكتاب : ٣٦٠/١

(٤) الكتاب : ٣٦٠/١

• أن يُلغى عملها " فلا" تغير الاسم عن الحال التى كـــان عليـــها قبـــل أن تلحق... ولكنها تجئ لمعنى "[٣] والوجه هنا" أن تُدخل الاسم في شئ تنفى عنه مَا سواه، وذلك قولك : ما أتانى إلا زيدٌ، وما لقيت إلا زيــداً، ومـــا مررت إلا بزيدٍ"[٤] . أما المعنى الذى تجئ له فهو نفى ما ســـوى هـــذه الأسماء،كما أنها توجب عمل الأفعال لهذه الأسماء، فهذا معنى أنـــها لا تُغير الاسم عن الحال التى كان عليها قبل أن تلحق ، على نحو ما عـبر سيبويه .ثم إنها تخص الاسم بعدها بالحكم المتضمن في الفعل، وتنفيــه عما رآه بشرط ألا يكون في الجملة اسم آخر يتنازعه الفعل ، فذاك مـــا يقصده بقوله:وتنفيه عما سواه".

* ومما تنفرد به "إلا " أيضا أنها حين تكون في جملة تامة منفية يأتى الاســم بعدها على وجهين:

الأول : أن يكون منصوبا على الاستثناء على النحو الذى قدمنا، ذلك مـــن قبل أن ما أتانى القوم إلا أباك في معنى : أتانى إلا أباك.

الثانى: أن يكون بدلا من المستغنى منه . وتفسير ذلك أنك حين تقول : ما أتانى أحد إلا زيدٌ، وما مررت بأحد إلا زيدٍ ، وما رأيت أحداً إلا عمراً، كأنك قلت:

ما مررت إلا بزيدٍ، وما أتانى إلا زيدٌ، وما لقيت إلا زيداً.[٣] ثم يزيد الأمـــر وضوحا فيقول :" كما أنك إذا قلت مررت برجل زيد فكأنك قلـــت: مـــررتُ بزيد فهذا وجه الكلام."[٤] ويجيب سيبويه عن سؤال مـــهم . لمـــاذا جعلنـــا

---

(١) الكتاب :١/٣٦٠

(٢) الكتاب: ١/٣٦٠

(٣) انظر الكتاب: ١/٣٦٠

(٤) الكتاب: ١/٣٦٠

المستثنى بدلا من الذى قبله؟ يقول:" لأنك تدخله فيما أخرجت منـــه الأول "[١]
معنى ذلك أن ضابط البدل هو الفعل نفسه. فإنه حين يكون منفيا يأتى بعـــده
اسمان على النحو التالى:

أولا : اسم قبل إلا.

ثانيا : اسم بعد إلا.

الاسم قبل " إلا خرج من الحكم الذى تضمنه الفعل.

الاسم بعد إلا " دخل في ذات الحكم.

ولذلك رأينا سيبويه يعبر عن هذا المعنى بطريقة أخرى ،حين يقول :" هـــذا باب ما يكون المستثنى فيه بدلا مما نُفى عنه ما أُدخل فيه"[٢].

- **ومن خصائصها أن يحمل الاسم قبلها على موضع العامل،، وذلك قولك : ما أتانى من أحدٍ إلا زيدٌ، وما رأيت من أحدٍ إلا زيداً.."[٣] وسبب الحمـل على الموضع أن " معنى ما أتانى أحد ، وما أتانى من أحدٍ واحد .ولكـن (مِنْ) دخلت ههنا توكيدا.."[٤]**
- **ومن خصائصها أيضا أن تكون بمعنى لكن**
- **كما تختص بتقدم المستثنى عليها،.. " وذلك قولك:" ما فيها إلا أباك أحدٌ..**
  وقال كعب ابن مالك رضى الله عنه:

---

[١] الكتاب: ٣٦٠/١

[٢] الكتاب :٣٦٠/١

[٣] الكتاب : ٣٦٢/١

[٤] الكتاب:٣٦٢/١

الناسُ ألبٌ علينا فيك ليس لنا　　　إلا السيوف وأطراف القَنا وَزَرُ

سمعناه ممن يرويه عن العرب الموثوق بهم..[١] وفي هذه الحـــال يكـــون منصوبا دائما

- كما تزاد (إلا) للتوكيد إذا كانت مكررة.

هذا ما رأيناه اختصاصاً لـــ " إلا " عند سيبويه ، فهل تابع النحاة مــــن بعده على ما قدم؟ ذلك ما نحن بصدده.

وإلا " حرف الاستثناء الأصلي عند المبرد[٢] الذى تابع على أنها تأتى ملغاة ، فقال: " الاستثناء على وجهين:

أحدهما : أن يكون الكلام محمولا على ما كان عليه قبل دخول الاستثناء... ما جاءني إلا زيدٌ..

والوجه الآخر: أن يكون الفعل أو غيره من العوامل مشغولا ، ثم تــــأتى بالمستثنى بعدُ..فالنصب واقع على كل مستثنى" [٣] ثم يقـول :" وإن كان الأجود فيه غيره"[٤] يقصد البدل على النحو الذى قُدم عند سيبويه.

- ويتابع المبرد كذلك على تقدم المستثنى نصبا"[٥] وذكر الشاهد الذى ذكـره سيبويه:

الناسُ أَلْبٌ عَلَيْنا فيكَ ليس لنا　　　إلا السيوفَ وأطرافَ القناوَزَرُ

---

[١] الكتاب : ٣٧١/١

[٢] المقتضب : ٣٩١/٤

[٣] المقتضب: ٣٨٩/٤

[٤] المقتضب ٣٩٠/٤،٣٩٤

[٥] المقتضب:٣٩٧/٤

- كما يتابع على مجئ "إلا" وما يعدها فى معنى " غير" و " مثل " وصفا[١]. وذكر قول الشاعر:

أُنِيخَتْ فأَلْقَتْ بلدةً فوق بلدةٍ   قليلٍ بها الأصوات إلا بُغَامُها

- وتجئ في معنى " لكن" ويكون المستثنى منصوبا ،"لأن الثانى ليس من نوع الأول .."[٢] أى تكون استثناء منقطعا ، ووجه النصب أن المستثنى لا يُبدل من المبدل منه ، لأنه ليس من نوعه، فينصب لذلك بأصل الاستثناء.على أنه يمكن تأويل الرفع في هذا المقام من طريقين كما قال المبرد:

أحدهما : أنك إذا قلت : ما جاءني رجل إلا حمارٌ ـ فكأنك قلت : ما جاءنى إلا حمار.. فكأنك في التقدير: ما جاءني شئ رجلٌ أو غيره إلا حمار.

الآخر : أنك تجعل الحمار يقوم مقام من جاءنى من الرجال على التمثيل ،كما تقول : عتابك السيف وتحيتك الضربُ ، كما قال:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ   تحيَّةُ بينهم ضربٌ وجميعُ[٣]

وكذلك فيما ذهب إليه سيبويه في خصائص (إلا)[٤]

ويتابع ابن الحاجب والاستراباذى على اختصاص (إلا) .[٥] ماخلا تفسيرات الاستراباذى (وابن الحاجب الفلسفيه حول المستثنى بوصفه مخرجا

---

[١] المقتضب :٤٠٨/٤

[٢] المقتضب :٤١٢/٤

[٣] المقتضب: ٤١٣/٤

[٤] المقتضب :٤٢٠/٤،٤١٢(تكرير الاستثناء)

[٥] الكافيه:٢٢٤/١-٢٢٩

من اسم متقدم عليه، هل المستثنى المتصل مخرج من متعدد من أجزاء ماهيته أو هو الاسم المذكور بعد إلا .. مخالفا لما قبلها نفيا وإثباتا؟ وغير ذلك من الملامح المميزة لهذين العالمين الجليلين. وإن كان لمنهجهما هذا ثمار آتت أكلها في مواضع أخرى على ما أرى.

وعند ابن يعيش أيضا " إلا " " أم حروف الاستثناء، وهى المستولية على هذا الباب "[١] ويعلل ابن يعيش كونها أما ، " لأنها حرف، وإنما ينقل الكلام من حد إلى حد بالحروف ، كما نقلت "ما" في قولك: ما قام زيدٌ من إيجاب إلى النفى .." [٢] وعلى ذلك تكون إلا قد نقلت الكلام من العموم إلى الخصوص فيكون المستثنى منه متضمنا معنى العموم ،حتى يُخصص بالمستثنى.

ثم يتابع ابن يعيش على اختصاصات إلا على النحو الذى رأيناه عند من سبقوه، نشير إليها في النقاط التالية :

أ- الأوجه الثلاثة التى يكون عليها الاسم بعد إلا [٣]

ب-الاستثناء المنقطع وتكون إلا بمعنى لكن[٤]

ح- أن تكون بمعنى العطف.[٥]

وهكذا يتابع النحويون حتى نصل إلى ابن هشام ، فلا نجد عنده إلا ما قدم سابقوه، وأن اختلف الأمر في طريقة العرض. فعلى سبيل التمثيل لا الحصر نرى من خصائص " إلا ":

---

(١) شرح المفصل :٧٧/٢

(٢) شرح المفصل :٨٣/٢

(٣) شرح المفصل: ٧٩/١، ٨٠، ٨١

(٤) شرح المفصل:٨٢/٢

(٥) شرح المفصل :٨٢/٢

● أنها تكرر. وهذا التكرار يأتى على وجهين:

أحدهما : للتوكيد . وفي هذه الحالة :

* إما أن تأتى بعد حرف عطف ، نحو : ما جاء إلا زيـــد وإلا عمرو.

* أو يأتى بعدها اسم مماثل لما قبلها ، كقوله:

- لا تمرُر رِبهم إلا الفتى إلا العَلاَ*[1]

وفي هاتين الحالين تلغى " إلا "

ثانيهما : لغير توكيد ، ويكون ذلك في غير العطف والبـــدل . وفــي هــذه الحال.نرى الأمر على وجهين :

الأول : بالنظر إلى العامل الذى قبل "إلا" من حيث هو مفرغ . فإنك تُعملــه في الأول ترجيحاً ، وينتصب ما عداه على الاستثناء .مثال ذلك :

ما قام إلا زيدٌ إلا عمراً إلا بكراً

معمولاً لقَام ← نصبا على الاستثناء بإلا

وكذلك : ما رأيت إلا عمراً إلا زيداً إلا بكراً

معمولاً للفعل ← نصبا على الاستثناء بإلا

الثانى: بالنظر إلى العامل غير المفرغ - فالأمر على وجهين:

اولهما : تتقدم المستثنيات على المستثنى منه ، فتنصب جميعاً
ماقام إلا زيداً إلا عمراً إلا بكراً أحدُ.

ثانيهما: أ- إما أن يكون الكلام إيجاباً

---

[1] أوضح المالك : ٢٧١/٢

فتنصب المستثنيات جميعاً " قاموا إلا زيداً إلا عمراً إلا بكراً".

ب- أو يكون غير إيجاب.

فيعطى أحد المستثنيات الحكم الذى يُعطاه لو انفرد، وينتصب ماعداه"

ما قاموا إلا زيدُ إلا غمراً إلا بكراً"

الرفع راجحا   النصب مرجوحاً

ذلك حكم المستثنيات المكررة بالنظر إلى اللفظ [١]

وكلام ابن هشام في مسألة التكرار باعتباره من خصائص إلا يمكن أن نستنتج منه خصائص أخرى . ذلك على النحو التالى

أ- أنها تكون زائدة لدلالة التوكيد.

ب- ولها غَلبة العمل إذا اجتمع معها عامل آخر، يدلك على ذلك ما جاء به ابن هشام من أمثلة ، فهو بذكر أن" ما قام إلا زيدٌ إلا عمراً إلا بكراً " يكون العمل لـ " قام " في معمول واحد، وتعمل إلا في باقى المعمولات. ويسود عملها إذا كان العامل غير مفرغ ، أو إذا تقدمت المستثنيات.

ج- ثم هى تنفرد- فيما أرى - بما يمكن استثناء بعضه من بعض،نحو: له عندى عشرة إلا أربعة إلا اثنين إلا واحداً.

وعلى ذلك تكون معايير الاختصاص فى إلا كما يلى :

---

[١] أوضح المالك : ٢/٢٧٠-٢٧٤

- **الأعمال ك ويكون معمولها على وجهين.**

- **الإلغاء.**

- **الزيادة.**

- يتقدم المعمول عليها.

- التكرار.

ذلك ما قدرنا عليه ونحن نحاول استحضار خصائص إلا من نصوص النحاة – فماذا يا ترى يقدم لنا المفسرون ؟؟

في قوله تعالى **(ولا يلتفت منكم أحد إ لا امرأتك)**[هود ٨١]

يقول أبوحيان :" وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : (إلا امرأتك) بالرفع، وباقى السبعة بالنصب ،فوجه النصب على أنه استثناء من قوله : بأهلك ـ كقراءة ابن عامر(ما فعلوه إلا قليلا منهم بالنصب.. ووجه الرفع على أنه بدل من أحد ، وهو استثناء متصل "[1] ثم يقول :" فالنصب لغة أهل الحجاز، وعليه الأكثر، والرفع لبنى تميم.. فإنه إذا لم يقصد إخراجهما من المأمور بالإسواء بهم، ولا من المنهيين عن الالتفات، وجعل استثناء منقطعا ،كان الاستثناء المنقطع الذى لم يتوجه عليه العامل بحال، وهذا النوع من الاستثناء المنقطع يجب فيه النصب بإجماع من العرب ، وليس فيه النصب والرفع باعتبار اللغتين ،وإنما هذا في الاستثناء المنقطع ،وهو الذى يمكن توجه العامل عليه ، وفى كلا النوعين يكون ما بعد "إلا " من غير الجنس المستثنى منه، فكونه جاز فيه اللغتان دليل على أنه مما يمكن أن يتوجه عليه العامل، وهو قد

---

[1] البحر المحيط : ٢٤٨/٥

فرض أنه لم يقصد بالاستثناء إخراجهما عن المأمور بالإسراء بهم، ولا من المنهيين عن الالتفات ، فكأن يجب فيه إذ ذاك النصب قولا واحدا."[٢]

من كلام أبى حيان نستنتج مايلى:

أولا : إذا لم يتوافر قصد الإخراج فالاستثناء منقطع ، ولم يتوجه العامل إلى المستثنى ، والنصب واجب بإجماع.

ثانيا: إن الذى فيه النصب والرفع ، هو استثناء منقطع يتوجه فيه العامل إلى المستثنى فشرط توجه العمل منوط بجواز قراءتى النصب والرفع.

قال الله تعالى **(لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) [هود٤٣]**

يقول أبو حيان :" ويكون الاستثناء منقطعا" ، أى : لكن من رحمه الله معصوم.[١] فجاءت إلا بمعنى لكن.

وعن قوله تعالى **(فشربوا منه إلا قليلا منهم)[البقرة ٢٤٩]**

يقول أبو حيان :" والمعنى أن هذا الموجب الذى هو فشربوا منه، هو في معنى المنفى ، كأنه قيل: فلم يطيعوه، فارتفع قليل على هذا المعنى ،ولولم يلحظ فيه معنى النفى، لم يكن ليرتفع ما بعد إلا ،فيظهر أن ارتفاعه على أنه بدل من جهة المعنى ، فالموجب فيه كالمنفى." [٢]

خلاصة هذا أن ما نراه إضافة قدمها أبو حيان يتمثل فيما يأتى:

أولا : إن قصد الإخراج عامل في تحديد نوع الاستثناء المنقطع من حيث توجه العامل، أو عدم توجهه.

---

[٢] البحر المحيط : ٥/ ٢٤٠

[١] البحر المحيط : ٥/ ٢٢٠

[٢] البحر المحيط : ٢/ ٢٦٦

ثانيا: كما أن فهم المعنى فهما دقيقا بغير مفهوم الظاهر ، على النحو الـــذى بان لنا ، حينما رأينا الموجب فى معنى المنفى ، ومن ثم يتغير حكـم الاسم الواقع بعد "إلا ".

ذلك ما خلص إليه درس "إلا " أما للباب ، أرجو أن يكون نقطة ضوء علـــى الطريق.

الفصـــل الثالث

إنْ الشرطية

نقل سيبويه عند الخليل أن "إنْ" أم حروف الجزاء، لما قال : " وزعم الخليل أنّ " إنْ" هى أم حروف الجزاء." [١] ثم صرح بهذا بعض النحويين في مصنفاتهم. [٢] والحق أن سيبويه لم ينقل كلام الخليل وكفى ، ولكنه سأله عن العلة فى كونها أى "إنْ" أما في الباب، فما كان جواب الخليل إلا أن قال :" من قِبل أنى أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيكن استفهاماً، ومنها ما يفارقه ما، فلا يكون فيه الجزاء، وهذه على حال واحدة أبداً لا تفارق المجازاة." [٣] هذا النص- إذا- يفسر معنى الأم هنا بأنه الثبات على حال واحدة ،لا تفارق "إنْ" فيها معنى الجزاء، على حين تتصرف أخواتها، فتتصرف إلى الجزاء وغيرالجزاء. وعلى ذلك تكون المسألة مسألة اختصاص تفسر مفهوم الأم في هذا الباب، وفى أبواب أخرى سبق الحديث عنها.

ولما كان مفهوم الاختصاص هنا منوطا بالثبات على معنى الجزاء حسب ، فليس ذلك قصارى القول ، وإنما لهذا الاختصاص دلالات لها مواضع معروفة فى الدرس ؛ بعضها نص عليه النحاة ،وبعضها لم ينصوا عليه ، إلا أنه بادٍ بين أسطرهم على أى حال. وجملة هذه المواضع عند سيبويه تظهر لنا على النحو التالى:

- إنك تراها تربط بين جملتين ، بحيث لا تستغنى احداهما عن الأخرى ، كما لا يستغنى مبتدأ عن خبر ، ولا خبر عن مبتدأ ، ويدلنا على ذلك قول سيبويه ، واعلم أنه لا يكون جواب الجزاء

---

[١] الكتاب : ٦٣/٣.

[٢] انظر مثلا شرح المفصل :١٥٦/٨

[٣] الكتاب : ٦٣/٣

إلا بفعل أو بالفاء. فأما الجواب بالفعل فقولك : إن تأتنى آتِــــك وإنْ تضرب أضرب ، ونحو ذلك "[١] ثمَّ يقول : " وأما الجواب بالفاء فقولك : إن تأتنى فأنا صاحبك . ولا يكون الجواب فـــي هذا بالواو ولا بثم ."[٢] ، هذا كلام جماعة في لـــزوم الجــواب للشرط ، وإلا فلا تمام للكلام ، ألا ترى أن ذلك نظير المبتــــدأ والخبر؟

- وإذا تتبعنا استعمالات " إنْ" الشرطية ، ألفيناها مقصورة علــــى المعانى المحتملة المشكوك في كونها . يدل علــــى ذلــك قــول سيبويه :" ألا ترى أنك لو قلت : آتيك إذا أحمرَّ البسْـــر كـــان حسنا، ولو قلت : آتيك إنْ احمر البُسر كان قبيحا . فـــإنْ أبــداً مبهمة "، [٣] .وذلك من قِبل أن وجود البسْر حقيقة واقعة، وهــذا لايتفق مع استعمال "إن" من حيث إنها معنيـــــة بالاســـتقبال، إذ الأفعال المستقبلة ، قد تكون وقد لا تكون.

- ومن اختصاصات " إنْ" أنك ترى " إذا " الفجائية تغنى عن الفاء فى جوابها يدلك على ذلك قول سيبويه :" وسألت الخليــل عــن قوله عزوجل (وإن تصبهم سيئةٌ بما قدَّمـــــت أيديــهم إذا هـــم يقنطون)* فقال : هذا كلام معلق بالكلام الأول كما كانت الفـــاء معلقة بالكلام الأول وهذا ههنا في موضع قنطوا ، كمـــا كـــان

---

[١] الكتاب: ٦٣/٣

[٢] الكتاب : ٦٣/٣

[٣] الكتاب : ٦٠/٣

* الروم (٣٦)

الجواب بالفاء في موضع الفعل: ومما يجعلها بمنزلة الفاء أنــها لا تجئ مبتدأة كما أن الفاء لا تجئ مبتدأة "[١].

- ومن اختصاصات " إن" أن يُفصل بينها وبين مجزومها . يقــول سيبويه :" واعلم أن حروف الجزاء يقبح أن تتقدم الأسماء فيــها قبل الأفعال ، وذلك لأنهم شبهوها بما يجزم".[٢] ثم يقــول بعــد ذلك:" ويجوز الفرق في الكلام في " إن " إذا لم تجزم في اللفظ، نحو قوله :

" عاودْ هَراةَ وإنْ مَعْمورُها خَرِبَا "

فإن جزمت ففى الشعر، لأنه يُشبَّه بلمْ،وإنما جاز في الفصل ولــم يُشبِّه "لَمْ" لأن " لَمْ " لا يقع بعدها " فَعَلَ"، وإنما جاز هذا في " إنْ" لأنها أصل الجزاء ولا تفارقه ، فجاز هذا كما جاز إضمار الفعل فيها حين قالوا :

إن خيرا فخيرٌ، وإن شرٌ فشرٌ. وأما سائر حروف الجزاء فهذا فيه ضعــف، لأنها ليست كإن .."[٣] .

ومن أهم ما يميز" إن " في اختصاصها ، أنك تــرى النحويين يتوسعون في القياس عليها ، إذا كان الكلام على معنى الجزاء ، ولم يُذكر فيه اسم ولا حرف مما وضعوه لذلك ، يدلك على الأمر قول سيبويه": فأما مــا انجزم بالأمر فقولك : أئتنى آتِك [٤]، وقوله أيضا : وأما ما انجــزم بالنــهى فقولك : لا تفعلْ يكن خيراً لك.[٥] ، وأما ما انجزم بالاستفهام فقولــك : ألا

---

[١] الكتاب : ٤٥٧/١

[٢] الكتاب :٤٥٧/١

(٣) الكتاب ٤٥٧/١-٤٥٨

[٤] الكتاب : ٤٤٩/١

[٥] الكتاب : ٤٤٩/١

تأتيني أحدثْك؟ وأين تكون أزُرْك ؟[١] وأما ما انجزم بالتمني فقولك : ألا مـاءً أشربْه ، وليته عندنا يحدّثْنا.[٢] ، وأما ما انجزم بالعَرْض فقولك : ألا تــنزل تصبْ يراً .[٣]

ثم يعلل سيبويه كل ذلك بقوله :" وإنما انجزم هذا الجــواب كمــا انجزم جواب "إن تأتني ، بإن تأتني ، لأنهم جعلوه معلقا بالأول غير مســتغن عنه إذا أرادوا الجزاء ، كما أن إنْ تأتني غير مستغنية عن آتِك [٤] . إن هذه النصوص كلها تؤكد معنى " إن " لأنها تصلح نائبة عن كل هذه المواضــع بمعانيها ، لذلك يمكن أن نتصور هذه المواضع في دلالتها على الجزاء علــى النحو التالي :

أ- فعل الأمر ــــــــــــــــــــ
ب- لا الناهية + الفعل المضارع ــــــــــــــــــــ
ح- الاستفهام ــــــــــــــــــــ | بمعنى " إنْ "
د- التمنى ــــــــــــــــــــ
هـ- العَرْضْ ــــــــــــــــــــ

والذى يؤكد ذلك الذى أذهب إليه ، قول سيبويه :" وزعم الخليــل : أن هذه الأوائل [٥] كلها فيها معنى إن ، فلذلك انجزم الجواب ، لأنه إذا قــال

[١] الكتاب : ٤٤٩/١

[٢] الكتاب : ٤٤٩/١

[٣] الكتاب : ٤٤٩/١

[٤] الكتاب : ٤٤٩/١

[٥] لا شك فى أن المقصود بالأوائل تلك التقسيمات التى أمامنا.

ائتنى آتك فإن معنى كلامه: إنْ يكن منك إتيان آتك ، وإذا قال : أيـــن بيتــك أزُرْك فكأنه قال : إن اعلم مكان بيتك أزُرْك .." [١]

هذا ما قدرنا عليه ، ونحن نحاول استجلاء دلالة " إن" الشرطية أماً في الباب، فهل هذا ما وقف عليه النحاة الخالفون لسيبويه ؟ هذا ما نحـــاول الإجابة عنه إن شاء الله.

وافق المبرد سيبويه فيما ذهب إليه من اختصاصات " إنْ " فقد بـــدأ أولا بتعريف الشرط على أنه " وقوع الشئ لوقوع غيره "[٢] . ثم أخذ يعـــدد عوامله من ظروف: كأين ، ومتى وغيرهما ، ومن أسماء نحو : مَنْ ، وما ، وأى ، ومهما ، ثم من حروف جاءت لمعنى مثل : إنْ ، وإنما .[٣] ويصـــل المبرَد بعد ذلك إلى المعنىّ من الكلام فيقول :" فحرفها في الأصل - يقصـــد المجازاة- " إن " وهذه كلها دواخل عليها لاجتماعها ."[٤] أما كيف فسر أنـــها أم في الباب ، فمن قبيل أنها تربط بين جملتين ، وهذا ما ذهب إليه ســـيبويه يقول المبرد :" إن تأتنى آتك، وجب الإتيان الثانى بالأول .."[٥] ولذلك شبهها بالمبتدأ والخبر ، لما قارن بينها - مع معمولها - فى " إن تأتنى آتك " مثـلا ، وبين الجملة الاسمية ، فقال :" فـــ(تأتنى) مجزومة بإنْ ، و(آتك) مجزومة بإن وتأتنى - ونظير ذلك من الأسماء قولك : زيدٌ منطلق ، فزيـــد مرفـــوع بالابتداء ، والخبر رفع بالابتداء والمبتدأ ." [٦] وعلى ذلـــك تكـــون صـــورة العامل والمعمول فى هذه المسألة عند سيبويه والمبرد على هذا النحو . .

---

[١] المقتضب :٤٥/٢

[٢] المقتضب : ٤٥/٢

[٣] انظر المقتضب :٤٥/٢

[٤] المقتضب : ٤٠/٢

[٥] المقتضب : ٤٥/١

إن ← عامل في فعل الشرط

إن + فعل الشرط ← عاملان في جواب الشرط

ولكن محقق كتاب المقتضب فضيلة الاستاذ محمد عبد الخالق عضيمة يرى أن هذا القول " وإن اعتمد عليه كثير من البصريين ، لا ينفك من ضعف ، وذلك لأن فعل الشرط فعل، والأصل في الفعل ألا يعمل في الفعل .. والتحقيق عندى أن يقال : إنْ " هو العامل في جواب الشرط بواسطة فعل الشرط ."[١] والحق أن هذا النص أوقعني في ارتكاس شديد،خاصة أنه من عالم جليل حجة ، ذلك أننا رأينا سيبويه منذ قليل، يقول: " فأما ما انجزم بأمر فقولك : ائتنى آتك "[٢] فذلك يعنى أن :

" آتك " مجزوم بالفعل " ائت"

فكلا الطرفين - العامل والمعمول - فعل ، يعنى فعل يعمل في فعل . هذا معنى كلام سيبويه، فكيف السبيل إذاً إلى تفسير هذا ؟إنه لمن الصعوبة بمكان أن ندخل طرفا رابعا في المسألة ، والأطراف الثلاثة هم كما يعرف أهل الدراية.

لكنى أرى على استحياء - أن المحاولة في العلم ربما تفسح الطريق أمام النظر العلمى ومن ثم يسوغ أن أقول في المسألة ما يعن لى من رأى يدور على محورين :

أولهما : قول سيبويه والمبرد بأن " إنّ " وفعل الشرط عاملان يعملان في معمول واحد، هو جواب الشرط .ولا يحسبن أحد أننا بصدد القول في التنازع ،كلا ليس هذا سبيل القول في المسألة من قريب ولا من بعيد ،

---

[١] هامش المقتضب : ٢/٤٨

[٢] انظر ص : ٣ من هذا البحث

ولكننى أحسب المسألة قد حُسمت عند سيبويه . هل نذكر قوله في الصفحات القليلة الماضية عما انجزم بالأمر وبالاستفهام ، وبغيرها مما ذكر ، ألم يقل بعد ذكره لهذا كله ، "وزعم الخليل أن هذه الأوائل كلها فيها معنى " إنْ"[1].

إن هذا الذى نقله سيبويه عن الخليل أظنه حسماً يقطع كل قول ، ذلك من قبل أننى أفهمه على هذا النحو :

- إن معنى الشرط موجود فى الأوائل التى ذُكرت على هذا التفصيل :

أ- ائتنى [الأمر]

ب- لا تفعلْ [النهى]

ج- ألا تأتينى [الاستفهام]

د- ألاماء [التمنى]

هـ- ألا تنزل [العَرْض]

فكل هذه المعانى متضمنة معنى الشرط ، ولذلك يمكن القول بأن معنى الشرط هو العامل في جواب هذه المعانى . ولما كانت " إن" هى أم الباب ، لأنه " يجازى بها في كل ضرب منه "[2] فتكون هى التى أعطت هذه المعانى " الأوائل" معنى الشرط ، فجاز أن تعمل هذه المعانى أو الأفعال الأوائل في غياب "الأم" ، لأنها مهيأة أن تعمل هذا العمل الذى لا ينصرف إلا إلى معنى الشرط حسب ، ثانيهما : ما ذهب إليه فضيلة الأستاذ عضيمة من

---

[1] انظر ص : ٣ من هذا البحث.

[2] المقتضب : ٢ / ٤٩

أن فعلاً عمل في فعل ، فإنه بناءً على ما رأينا يمكن أن نتصور المسألة على هذا النحو :

" إن " + فعل الشرط

ليس من قبيل : حرف يعمل هو " إن " + فعل يعمـــل هـــو فعــل الشـــرط ومعمولهما هو جواب الشرط . ولكن تأخذ الصورة شكلا آخر يمكن أن يكون هكذا :

" حرف ومعناه ←——— يعملان في معمول واحد هو جواب الشرط فكأنهما عامل واحد ، لأن الحرف " إن " أم ، والفعل " فعل الشرط " تأويلـــه في معنى الأم ، فكأنهما شئ واحد.

وللشلوبين رأى فى هذه المسألة ، أحسب أن ما قلته كان له نصيب من بعض ما قال . يقول الشلوبين : " والمسألة محتمل أن يقال فيـــها : إن أدوات الشرط هى التى جزمت الشرط والجواب معاً ، لأنها مقتضية لهما معاً مـــن حيث لم تكتف بأحدهما دون الآخر ... ومحتمل أن يقال فيها : إنّ " إنْ" إنمـــا هى كلمة شرط فلا تقتضى إلا فعل الشرط فلا تجزم إلا إياه ، وفعل الشـــرط هو الذى يقتضى الجواب ، فهو الذى ينبغى أن يجزم الجواب دون الشرط .. ومحتمل أن يُقال : إن فعل الشرط لا يقتضى الجـــواب وحـــده إلا مـــع أداة الشرط ، و" إن " تقتضى فعل الشرط خاصة .." [1]

ثم يقول " فينبغى أن يُنسب جزم الشرط لـــ "إنْ" ؛ وجزم الجـــواب لـــ (إن) وفعل الشرط ،وهذا أيضا قد قال به جماعة أخرى ، إلا أن هذا هـــو أحق هذه الأقوال من جهة النظر ، فلذلك عول عليه الأكثر . فإن قيل : فكيف

---

(١) الشلوبين " أبو على عمر بن محمد بن عمر الأزدى ت ٦٥٤هـــ : شرح المقدمة الجزولية الكبير: ٤٨٣/٢تحقيق د. تركى بن سهو بن نزال العتيبى " الطبعة الثانية ١٩٩٤م مؤسسة الرسالة /بيروت.

يجزم الفعل والفعل ليس بجازم ؟قيل : كما يجزم الاسم في الشرط والاسم ليس بجازم ، فكما جزم الاسم في الشرط لما معه في التقدير من معنى " إن" التى ضمها ، كذلك يجزم الفعل في الشرط لما معه من " إن " التى للشرط لفظا "[١].

ولعلنا نذكر فى هذا الصدد " إلا " بوصفها أما فـي الاستثناء ، إذ رأينا كيف أن معنى الاستثناء في الحرف هو الذى عمل النصب في الاسم الواقع بعده ولكن ربما استقام القول هنا بأن المسألة معكوسة ، ففـى " إلا " أخذ الحرف معنى الفعل، ليكون بمعنى استثنى ، فى حين أخذ فعل الشرط معنى حرفه " الأصيل " " إن" باعتباره أما في الباب باجماع النحاه بدءاً من شيخهم.

ووافق المبرد سيبويه على معنى الظن والشك فى " إنْ" إذ يقول :" إنْ" إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر " [٢] كما وافقه على أنها، أى " إنْ " تحيل معنى المضى إلى الاستقبال ، إن وليها فعل ماض ، فيقول :" وقد يجوز أن تقع الأفعال الماضية في الجزاء على معنى المستقبلة؛ لأن الشرط لا يقع إلا على فعل لم يقع ، فتكون مواضعها مجزومة .."[٣].

وعن احتمال الفصل بين " إنْ" وما عملت فيه ، فقد وافق المبرد سيبويه في جواز الفصل ،حتى إن المبرد ذكر الشاهد الذى استشهد به سيبويه على ذلك:

- عَاودْ هرَاة وإنْ معمورُها خَربا "[٤]

---

[١] شرح المقدمة الجزولية : ٤٨٤/٢

[٢] المقتضب: ٥٥/٢

[٣] المقتضب : ٤٩:/٢

[٤] انظر المقتضب :٧٢/٢

ثم يقول المبرد :" وإنما احتملت " إنْ " هذا في الكلام ، لأنـــها أصـــل الجزاء ، كما تحتمل الألف في الاستفهام تقديم الاسم ... "[١] كما تابع المـــبرد على حواز أن نعنى " إذا " الفجائية عن الفاء مستشهدا بالأية الكريمـــة فـــي سورة الروم [٢] التى ذكرها سيبويه.

ويتابع ابن السراج على ما ذهب إليه سيبويه والمـــبرد ، إذ يقـــول :" ..فإن ... ويُقال لها : أم الجزاء، وذلك قولك: إن تأتنى آتك ... وهـــو نظير المبتدأ الذى لا بد له من الخبر .. وحق " إنْ " في الجزاء أن يليها المســتقبل .. أنك إنما تشترط فيما يأتى ، أن يقع شئ لوقوع غيره ، وإن وليـــها فعـــل ماض أحالت معناه إلى الاستقبال .." [٣] ثم هو يتابع أيضا على تقدير معنى " إن " فى الأمر والنهى والاستفهام والتمنى ،والعرض .ومن أمثلته في هـــذا الصدد قوله :" .. ولا تفعل يكن خبرا لك ، وهذا نهى ، والتـــأويل لا تفعـــل فإنك إن لا تفعل يكن خيرا لك ..[٤].

ومما أحسب ابن السراج قد تفرد به أنه جعل " إن " الأســـاس الـــذى ينقاس عليه صلاحية الموضع للشرط ، فما لايصلـــح فيـــه " إن " للشـــرط لايصلح فيه غيره من أخواتها في الباب ، يدل على ذلك قول ابن الســـراج :" فينبغى أن تعلم أن المرُاضع التى لا يصلح فيها " إن " لا يجوز أن يجـــازى فيها بشئ من هذه الأسماء البته ، لأن الجزاء في الحقيقة إنما هو بها".

---

[١] المقتضب : ٧٢/٢

[٢] الآية رقم ٣٦

[٣] ابن السراج أبو بكر محمد بن سهل بن السراج ت ٣١٦ هـ : الأصول في النحـــو : ١٥٨/٢ ، الطبعـــة الثالثة :١٩٩٦ م ، مؤسسة الرسالة – بيروت.

[٤] الأصول : ١٦٢/٢

ويتابع الرمانى على أقوال من ذكرنا ، مثال ذلك قوله :" فالعاملة تكون شرطا ، وذلك قولك : إن تقم أقم معك.. فإن أدخلتها على فعليـــن مـــاضيين حكمت على موضعهما بالجزم.. ولا يلى إنْ الفعلُ إلا مظهرا أو مضمـــرا .. والمضمر نحو قوله تعالى : (إن امرؤ هلك)[النساء ١٧٦]..."[١].

ويتابع الزمخشرى على ما تابع عليه الرمانى وسابقوه. فأنت تراه يقول :" ولا تستعمل " إنْ" إلا في المعانى المحتملة المشكوك فى كونـــها"[٢] وفـــى موضع آخر يقول : إن تضربنى أضربك. الأولى شرط والثانية جزاء ، وهى تجعل الفعل للاستقبال ، وإن كان ماضيا" [٣] وهكذا نجد الزمخشرى متابعـــا لكل من سبقوه ممن ذكرنا .[٤].

وإذا كان ابن يعيش ، رأينا حقا عبارة مشرقة تعين الباحث على رؤيـــة واضحة ، تكاد تجمع ما كان شتاتا في مصنفات سابقة . انظر إلى حديثه عن " إنْ" .إنه يقول:" وأعلم أن " إنْ" أم هذا الباب ؛ للزومها هذا المعنى ،وعـــدم خروجها عنه إلى غيره ، ولذا اتسع فيها "[٥] . قال كما قال غـــيره بأنـــها أم الباب ، لكن الذى أراه يزيد فيه على أصحابه ، أنه جعل من ملازمتها معنـــى الشرط اختصاصا ، ثم جعل من هذا الاختصـــــاص مدخـــلاً للتوســـع فـــي استعمالاتها ، فساقها على منوال من التنظيم والترتيب ، بحيث جمعت أقـــوال السابقين التى تابع عليها ، وأقوالا خاصة به ، أظنه تفرد بها .جاء ذلك علـــى النحو التالى:

---

(١) الرمانى " أبو الحسن على بن عيسى ت ٣٨٤": معانى الحروف، ص :٧٤، تحقيق الدكتورعبد الفتاح شـلبى ، دار النهضة مصر / .القاهرة

(٢) شرح المفصل :٤/٩

(٣) شرح المفصل : ١٥٥/٨ بتصرف

(٤) انظر أيضا شح المفصل :٩/٩

(٥) شرح المفصل : ١٥٦/٨

أولا : تابع ابن يعيش على:

أ- الفصل بين " إن" ومجزومها " نحو قولهم " : "إن الله أمكنني من فلان فعلت " [١]

ب- وعلى ربطها بين جملتين " وتصيرهما كالجملة ،نحو قولـــك :إن تأتني آتك، والأصل : تأتيني آتيك، فلمـــا دخلـــت " إن " عقـــدت أحداهما بالأخرى"[٢].

ج- كما أنها تحيل الماضي إلى المستقبل أيضا [٣].

ثانيا: تفرد ابن يعيش بما يأتي:

أ- إنه يُقتصر عليها ، ويوقف عندها ، نحو قولك ؛ صل خلـــف فلان وإن ،أي وإن كان فاسقا ، ولا يكون مثل ذلك في غيرهـــا مما يجازى به.

ب- إن العلاقة بين "إن" و" كان" علاقة على نحو خاص من قبـــل أن كان يمكن أن تقلب دلالتها إلـــى " إن " ،بوصفـــها أصـــل الأفعال ، ولقوة دلالتها على المضي . وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول:

* " إن " +كان تظل كان على معنى المضي

* "إن " + أي فعل ماض غير كان ،يكون معناه مضارعا.

---

[١] شرح المفصل : ١٥٦/٨

[٢] شرح المفصل :١٥٦/٨

[٣] شرح المفصل : ١٥٦/٨

ج- إذا دخلت على الجملة الفعلية صيرت معناهــــا ناقصــا ، إذا أصبحت مفتقرة إلى جواب، ودليل ذلك قول ابن يعيش حيـــن تحدث عن "إن" بوصفها عاقدة بيـــن جملتيـــن :" .. فالجملـــة الأولى كالمبتدأ والجملة الثانية كالخبر ، فهو من التام الـــذى لا يزاد عليه فيصير ناقصاً نحو : قام زيد، فهذا كلام تام ، فـــإذا زدت عليه "إن" وقلت "إن" قام زيد ، صار ناقصا ، لايتـــم إلا بجواب ، ومثله المبتدأ والخـــبر .." [1] فدخـــول "إن " علـــى الجملة الفعلية ، أوجب لها طرفا آخريحصل به بناءان جديدان:

أ- بناء تركيبى لجملة جديدة.

ب- بناء معنوى جديد متصل بالبينة التركيبية الجديدة

هذا الشكل البنائى الجديد أوجب معنى مغايرا للجملة الفعلية قبـــل أن تدخل عليها" إنْ ". ولوجود هذه البنية الجديدة يمكن أن نقول:

- **إن الفعل " قام" لم يعد مجرد عامل في الفاعل ، ولا هو وفاعلـه من قبيل الإسناد الذى تحصل به فائده ما.**
- لقد صار عاملا ومعمولا أيضا من قبـــل أن (إن) جعلتـــه فـــي موضع جزم ،لأنه فعل ماض.
- ومن ثم أصبح يطلب فعلاً آخر ليكون جوابا ، وليتـــم المعنـــى المطلوب ،معنى الشرط في الشكل البنائى الجديـــد المســـتوجب شرطا يتوقف عليه الجزاء ،كما أشار إلى ذلك ابن الحاجب فـــي

---

[1] شرح المفد لى :٨/١٥٦

قوله :" وكلم المجازاة تدخل على الفعلين لسببية الأول ومسـببيه الثانى يسميان شرطا وجزاءً."[١]

ويوافق ابن الحاجب سابقية على ما يأتى :

١-وجود معنى " إن" بعد الأمر والنهى والاستفهام ، والتمنى - مثل اسـلم تدخل الجنة ، ولا تكفر تدخل الجنة .. لأن التقدير : إن لا تكفر .[٢]

٢-إنْ رابطة بين جملتين [٣]

٣- جواز دخولها على الاسم بشرط أن يكون بعدها فعل[٤]

٤-يكون شرطها للاستقبال ، وإن كان ماضيا قلبته للاستقبال[٥].

ولكن الاستراباذى له نظر فى بعض ما اتفق عليه النحاة في مسـألة اختصاص "إنْ" على النحو التالى:

١-يشترط في الفعل الماضى الذى يأتى بعد " إن" أنْ يكون لفـظ " كـأن" الناسخة للمبتدأ أو الخبر ،لأن دلالة "كان" على الزمن الماضى ومطلـق الحدوث ، الذى يخصص بالخير . يدل على ذلك قوله :" ثم اعلـم أنَّ "إنْ " يكون شرطها في الأغلب مستقبل المعنى، فإن أردت معنى المـاضى جعلت الشرط لفظ كان ،كقوله تعالى (إن كُنتُ قُلْتُهِ)،(إن كَان قميْصُه)- وإنما اختص ذلك بكان لأن الفائدة التى تستفاد منه فى الكلام الذى هـو

---

[١] الكافيه :٢/٢٥٢

[٢] انظر الكافيه : ٢/٢٦٥

[٣] انظر الكافيه : ٢/٢٥٤

[٤] الكافيه : ٢/٢٥٤

[٥] الكافيه :٢/٢٤٦

فيه الزمن الماضى فقط ، وذلك لأنه يدل على الزمن الماضى ، ومطلق الحدوث "[١] . وهذا الشرط ذكر معناه ابن يعيش.[٢]

٢-حذف الشرط والجزاء بعد "إن" في الشعر خاصة مع القرينة ، وذكرشاهداً على ذلك قول الشاعر:

قالت بنات العم ياسلمى وإن كان فقيرا مُعدِماً قالت : وإن

ويحذف في السعة شرطها وحده ، إذا كان منفيا .[٣]

٣-والاستراباذى لا يوافق النحويين على أن تكون "إنْ" للشك ، بل هى عنده "لعدم القطع في الأشياء الجائزة وقوعها وعدم وقوعها ..[٤]

وابن هشام متابع للنحاة ، ولابن يعيش في جوازه حذف ما علم من شرط إن كانت الأداة "إنْ"مقرونه بـ(لا)[٥] . ولكنه لم يذكر حذف الشرط والجزاء كما رأينا عند الاستراباذى.

والشيخ الأزهرى يخبر أيضا بأن "إن" أم الباب[٦]ويوافق النحويين على :

١-جواز غناء إذا الفجائية عن الفاء إذا كانت الأداة (إن) [٧] بالشروط التى تحدث عنها النحاة ،ويستشهد في هذا بما استشهدوا به من نحو ذكره لقوله تعالى (وإنْ تُصبْهُم سيئةٌ)

---

[١] الكافيه : ٢/٢٦٤

[٢] انظر ص :٦٩ من هذا البحث

[٣] انظر الكافيه: ٢/٢٥٣

[٤] الكافيه : ٢/٢٥٣

[٥] انظر أوضح المسالك ٤/١٩٤

[٦] شرح التصريح : ٢/٢٤٧

[٧] شرح التصريح :٢/٢٥١

٢-وعلى أنَّ " إنْ" رابطة بين جملتين على نحو ما سبق[١]

٣- ويتابع الأزهرى ابن هشام وابن يعيش على جواز حذف الشـــرط ، إذا كانت الأداة "إن" مقرونة بلا النافية "[٢]وقد ذكر شاهدا على ذلك ، وهـــو قول الأحوص مخاطبا مطراً الذى كان دميم الخلقة ، وتحته امرأة جميلة.

فطلِّقْها فلستَ لها بكُفء وإلا يَعْلُ مفرقَك الحسامُ

فحذف الشرط لدلالة قوله فطلقها عليه ، وأبقى جوابه ، أى مـــر إلا تطلقها يَعلُ.[٣]

وقد تجدر الإشارة هنا إلى أحد المحدثين الدكتور محمـــود فجـــال الأستاذ في جامعة الإمام وهو يؤكد على ضرورة الاستشهاد بـــالحديث الشريف ، حتى إنه تحدى أن يكون لسيبويه والخليل وأضرابهما موقـف رافض من الاستشهاد بكلامه صلى الله عليه وسلم .

إن الباحث يتحدى ، ولا أرى لذلك وجـــها لأن الأمربيـــن لأهـــل الاختصاص ولأن ما استشهد به النحاة من كلامه صلى الله عليه وسلم - على قلته بالنسبة لشواهد أخرى - أكثر مما قدمه فضيلة الدكتور . فحين تحدث عن مسألة حذف فعل الشرط مثلا ، ذكر قوله صلـــى الله عليـــه وسلم (إما لا فأعنِّى على نفسك بكثرة السجود) " والتقدير: إن كنـــت لا تقول غير هذا فأعنىَّ " [٤].

---

[١] انظر شرح التصريح :٢٥١/٢

[٢] انظر شرح التصريح :٢٥٢/٢

[٣] السابق والصفحة

[٤] الدكتور محمود فجال: الحديث النبوى في النحو العربى ، ص: ٢٩٠ الطبعة الأولى ١٩٨٤م نادى أبها الأدبي.

ولو كان أمعن النظر في مصنفات النحاة ، لوجد غير ذلك مما يغنيه عن أن يرفع صوت التحدى ، ألم يقرأ قول الشيخ الأزهرى في مسألة حذف الشرط والجواب: " وقد اجتمع حذف جواب وشرط في قوله صلى الله عليه وسلم (فإن جاء صاحبها ، والا استمتع بها) فحذف من الأول الجواب، ومن الثانى الشرط . والتقدير : فإن جاء صاحبها فردها إليه ، وإن لم يجئ ماستمتع بها"[1] هذا مثال على سبيل المثال ، لأنه كان آقمن به أن يذكره في المسألة التى ذكرها ، وغير ذلك كثير.

ثم إن تحفظ النحاة في الاستشهاد بالحديث ، لا أظنه إلا من قبيل التحرى ، ولا أظنه أيضا إلا درءاً لمظنة الشبهة، فيما لو تسمحوا فتوسعوا فى مسألة الاستشهاد بحديثه صلى الله عليه وسلم ، خاصة أن الجدل في رواية الحديث لفظا ومعنى قسم النحاة على أنفسهم ، وقد ذكر ذلك المؤلف نفسه في أول كتابه.

٤-ويفهم من كلام الشيخ الأزهرى أن "إن" هى العامل في الشرط والجزاء ، وذلك في رده على من قال بأن الجازم كالجار ، لايعمل في سيئين ، يقول: " ويجاب بأن الجازم لما كان لتعليق حكم على آخر عمل فيهما بخلاف الجار ، وبأن تعدد العمل قد عهد من غير اختلاف ، كمفعولى ظن ، ومفاعيل أعلم."[2]

ويذهب الشيخ الأزهرى مذهبا أحسب أنه تفرد به ، وأحسب أيضا أنه من الرجحان بمكان، فهو يردعلى الخليل وسيبويه ، حين ذهبا إلى أنَّ:

"إنْ" + فعل الشرط ←—— عاملان في الجواب

---

(١) شرح التصريح : ٢/٢٥٢

(٢) اشرح التصريح . ص: ٢٤٨

بقوله إن " العامل المركب لا يُحذف أحد جزأيه ويبقى الآخر ، وفعل الشرط قد يحذف. وبأن العامل المركب ، لا يفصل بين جزأيه . وقد جاء الفصل، نحو: (وإن أحد من المشركين استجارك).." [١]

ولعل مذهب الشيخ الأزهرى هنا يؤيد ما ذهبنا إليه في تفسير الأوائل التى زكرها سيبويه .[٢].

هذا شتات الاختصاص في " إن " حاولت أن أجمع بينه هنا ، فلعل المحاولة قد أفلحت ، ولعلنى أقدر بعد ذلك على إبراز أهم ملامح الدرس في هذا الصدد على النحو التالى:

١- اتفق النحاة جميعهم على أن " إنْ" أم الباب ، وربما كان هذا الموضع هو الذى رأينا فيه سيبويه يسأل الخليل عن العلة في معنى الأم.

٢- إن بقاء" إن" على حال واحدة ،كما ذكر سيبويه وغيره هوتفسير معنى الأم، ثم هو وجه من وجوه الاختصاص فيها ،الذى يُعد من الخصائص المميزه في الاستعمال الذى تؤكده تلك الأنماط المختلفة التى تميزت بها، على اختلاف منازع النحاة في تفسيرها.

٣- إن " إن" عاقدة بين جملتين على نحو ما ظهر لنا من كلام النحاة ، ولذلك شبهوا الجملتين ــ معقودتين بــ"إنْ" بالمبتدأ والخبر، ولكن يجب أن نلتفت إلى أن :

أ- العلاقة بين جملتى الشرط والجواب ، ليست علاقة إسناد على النحو المفهوم من البنية التركيبية فى المبتدأ والخبر.

ب-إنما العلاقة بين الجملتين علاقة سببية ومسببة.

---

(١) السابق ص:٢٤٨

(٢) انظر ص : ٨،٩

٤- ربما كان هناك شبه بين جملتى الشرط والجواب من وجهة ، والمبتـــدأ والخبر من وجهة أخرى، إذ رأينا طرفا يعمل في طرف آخـــر ، علـــى نحو ما هو معروف في المبتدأ والخبر ،كما اختلف في تفسير العمل هنا وهناك أيضا .

٥- إن النظر إلى :

الأمر

والنهى

والاستفهام

والتمنى

والعرض

على أنها في معنى " إن" ، يلفت إلى أن السياق هو الذى أوجب هـــذا من قبل أن المعنى في كل ذلك مقيس على المعنى الموجود في " إن" الذى لا يفارقها ، والذى هو الجزاء ،كما عبر النحاة . ولعل الذى فهمنا ،كـــان مدعاة للقول بعمل الحرف ومعناه في معمول هو جواب الشرط وبأن عمل الحرف ومعناه عددناه من قبيل العامل الواحد على نحو ما بينا.

٦- إن مسألة تفسير الأم في الباب النحوى على أنها اختصاص ،كلام مقبول وصحيح على ما يظهر لى : ولذلك أحسبه يلقى بظلال ،إن سُلط عليـــها الضوء، ربما وافتنا بما قد نعده – يوما - نظرا جديدا .ذلك أننا رآينا صلة على نحو ما بين " إنْ " و "كان" ، وقبلا بين " كان" و" عسى". وهكذا ترى أمهات الأبواب صاحبات الاختصاص .

وقد يكون من تتمة القول في" إنْ" أماً للباب، أن نرى أحوالها فـــي استعمال النص القرآنى الكريم ، عسى أن يضيف ذلك شيئا إلى ما رأيناه عند النحاة.

قال تعالى **(إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ)** [المائدة ١١٦]

يقول أبو حيان معلقا على هذه الآية الكريمة : " علق مستحيلا علـــى مستحيل ، وهو نفيه علمه تعالى بذلك القول ، فانتفى ذلك القول "[١]

وقال عزمن قائل : **(إن تشأ نُنْزِل عليـــهِم مـــن السَّـمَاءِ آيـــةً ..)** [الشعراء٤].

يقول أبوحيان :" إنْ دخلت على نشأ ، و"إنْ " للممكن ، أو المحقـــق المبهم زمانه قال ابن عطيه: ما فى الشرط من الإبهام ، هو في هذه الآية في حيزنا . وأما الله تعالى فقد علم أنه لا يُنزل عليهم آية اضطرار ، وإنما جعل الله آيات الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضه للنظر والفكر ليهتدى من ســبق في علمه هداه ..[٢]

وقال أيضا :" **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُـــونَ**." [الروم ٣٦].

يقول أبو حيان :" و"إذاهُمْ " جوابه: " وإنْ تُصبْهم " ، يقوم مقام الفـــاء في الجملة الاسمية الواقعة جوابا للشرط"[٣].

ومن قوله عزوجل:

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [آل عمران ٩٣]

يقول أبو حيان :" وخرج قوله :" إن كنتم صادقين "مخرج الممكـــن ، وهم معلوم كذبهم، وذلك على سبل الهزء بهم ، كقولك : إن كنـــت شـــجاعا

---

[١] البحر المحيط : ٥٩/٤

[٢] البحر المحيط :٥/٧

[٣] البحر المحيط : ١٧٤/٧

فالقنى، ومعلوم عندك أنه ليس بشجاع ، ولكن هزأت به ؛ إذ جعلت هذا الوصف مما يمكن أن يتصف به"[١]

وعن قول الحق تبارك اسمه:

(وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ) [الأنفال٣٢]

يقول أبو حيان : وهذه الجملة الشرطية فيها مبالغة في إنكار الحق عظيمة، أى: إن كان حقا فعاقبنا على إنكاره بإمطار الحجارة علينا .." [٢]

وعن قوله سبحانه:

"وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ.." [يوسف ٢٧]

يقول صاحب الدر المصون :"قوله :" إن كان" هذه الجمله الشرطية : إما معمولة لقول مضمر تقديره : فقال : إن كان ، عند البصريين ، وإما معمولة لـ" شهيد " لأنه بمعنى القول عند الكوفيين .." [٣]

نستنتج من ذلك ما يأتى :

١-"إنْ " تأتى لتعليق مستحيل على مستحيل.

٢-وتأتى للممكن، أو المحقق المبهم زمانه.

٣-"إذا " تقوم مقام الفاء.

٤- ومن معانى " إنْ" في النص الكريم أن ترى معها غير الممكن على صورة الممكن للدلالة على الهزء والاحتقار.

---

[١] البحر المحيط : ٤/٣

[٢] البحر المحيط : ٤٨٨/٤

[٣] السمين الحلبى" أحمد بن يوسف ت ٧٥٦هـ الدر المصونه في علوم الكتاب المكنون : ٤٧٢/٦، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، دار القلم ، دمشق ، بيروت.

٥-ونرى الإنكار معنى من معانى " إن" في استعمالات النـــص الكريــم ، وليس أدل على هذا من قول أبى حيان في تفسيره لقوله تعـــالى :" .. إن كان هذا هو الحق.."

٦-في كثير من استعمالات النص الكريم نرى:

إن + كان

كما رأينا ذلك في نحو قوله تعالى:

[إن كنت قلته]

وقوله :

[إن كان قميصه]

وقوله :

[إن كان هذا ...]

٧- إن رأى الاسترابادى وابن يعيش في كون الفعل الماضى بعد" إن" كـــان" تؤكده تلك النماذج التى قدمناها من الذكر الحكيم.

٨- إن تركيب : [إن + كان]

ربما كان يقصد في النص الكريم إلى المعانى التالية

أولا : تعليق مستحيل على مستحيل كما رأينا.

ثانيا : المبالغة في الإنكار

ثالثا : الشك

بعد هذه المحاولات ، يمكن القول بأن النص الكريم أضـــاف معنييـــن جديدين لما قدم النحاة ، وهم يسجلون آراءهم في اختصاصات " إنْ" هما كما رأينا :

أ- تعليق مستحيل على مستحيل.

ب- المبالغة في الإنكار.

فعلى ذلك يمكن إدراج هذين المعنيين ضمــــن اختصاصـــات " إن" عسى أن يكون ذلك تتمه للقول في حديث " إن ".



الفصل الرابع

" أنْ "

فى حديث " أن " يلقانا تعبير جديد يدل على معنى الأم في البـــاب .. ذلك ما ظهر لنا عند المبرد ، حين قال : " أن" أمكنُ الحروف فـــي نصـــب الأفعال"[١] ولذلك نقل عن الخليل أنه كان يقول :" لا ينتصب فعل البته إلا بـــ "أن" مضمرة أو مظهرة ."[٢] .

ورُب سائل يقول :ما معنى أن نضع يدنا على تعبير آخر معناه هـــو معنى الأم في الباب النحوى ؟ ماذا يقدم لنا ؟ الحق أن الأمر ليس من قبيـــل الوقوف على تعبير جديد ، لكننى أرى ذلك التمكن الذى فـــي " أنْ " يعنـــى الاختصاص الذى نبنى عليه مفهوم الأم ينضاف إلى ذلك أن معنى " التمكـــن "هذا ، ربما أسلم إلى تفسيرات أخرى تعمق مفهوم الاختصاص .

والآن إلى أقوال النحاة وآرائهم في مسألة اختصاص " أنْ ". يـــرى سيبويه أن من اختصاصات " أنْ":

* أنها مع معمولها بمنزلة مصدر لا يقع في الحال

أنْ + فعل ← المصدر من هذا الفعل

وذلك حيث يقول :" فأن مفتوحة تكون على وجوه، أحدهـــا : أن تكـــون فيه" أنْ" وما تعمل فيه من الأفعال بمنزلة مصادرها ." [٣]

* ولا فرق بين أن يكون الفعل ماضيا أو مضارعا بعد" أنْ" . يقول سـيبويه: " أئتنى بعـ أن يقع الأمر ، وأتانى بعد أنْ وقع الأمر ، كأنه قال بعد وقـــوع

---

(١) المقتضب : ٦/٢

(٢) السابق والصفحة

(٣) الكتاب : ٤٧٥/١

الأمر ."[1] نفهم من هذا أنها لا تقع مع الفعل حالاً ، لذلك قصرت على المضارع والماضى وقصر المضارع على ما يكون توقعا لا يقينا [2].

ووقوع معنى المصدرية في "أنْ" ومعمولها ، ربما أعطى لها بعض المعانى المخصّصة لها ، كأنْ تراها في معنى:

* العلة ، أو فى معنى المفعول لأجل كذا ،حتى لكأنها المصدر الواقع مفعولاً لأجله ،لذلك يقول سيبويه في نص طويل :" وأعلم أن اللام ونحوها من حروف الجر قد تحذف من "أنْ" كما حُذفت من " أنْ" ، جعلوها بمنزلة المصدر حين قلت : فعلت ذاك حَذَر الشر ، أى لحذر الشر... ومثل ذلك قولك : لا تفعل كذا وكذا أن يصيبك أمر تكرهه ، كأنه قال :لأن يصيبك ، أومن أجل أن يصيبك . وقال عزوجل **(أنْ تَضِلَّ إحْدَاهُمَا)** [البقرة ٢٨٢]، وقال تعالى **(أنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)** [القلم ١٤] كأنه قال : ألآنْ كان ذا مال وبنين وقال الأعشى:

أ أنْ رأتْ رجلاً أعْشَى أضرَّبه ريبُ المنون ودهر مُفْسدٌ خَبِلُ

فأنْ ههنا حالها في حذف الجر كحال أنَّ ، وتفسيرها كتفسيرها ، وهى مع صلتها بمنزلة المصدر"[3] ، ويقول سيبويه أيضا :" وتقول : لا يلبث أنْ يأتيك ،أى لا يلبث عن إتيانك ." [4].

* وقد يظهر من النصوص أن العلة يمكن أن تأتى على صورتين :

احداهما :" أن " + الفعل

---

[1] الكتاب : ٤٧٦/١

[2] انظر الكتاب : ٤٧٦/١

[3] الكتاب : ٤٧٦/١

[4] الكتاب : ٤٧٦/١

كما في قول سيبويه : أن يصيبك أمر تكرهه

وكما في قوله تعالى الذى أورده سيبويه :

(أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا)

وكقول الأعشى :

" أ أنْ رأت "

الثانية : حرف الجر + "أنْ والفعل بعدها "

وهذا ظاهر في قول سيبويه :

" كأنه قال . لأن يصيبك "

وكذلك في قوله : " وتقول : إنه خليقٌ لأن يفعلَ، وإنه خليقٌ أنْ يَفْعَل علـــى الحذف "[1].

هكذا رأينا استعمال " أنْ" وصلتها بدون حرف الجر مــرة ،ومــرة مسبوقة بحرف جر ، وأحسب أن هذا الاستعمال بسبب قابليتها للمصدرية مع معمولها ، وذلك من قبل أن المصدرية تعنى اسما مفردا ، ومن خصـــائص الأسماء ، أنها قابلة للجر ، فلذلك رأينا:

[أن + الفعل] في تأويل اسم مجرد

ورأينا :

[حرف الجر + "أنْ والعقل"] فى تأويل اسم مجرور

ودليل ما ذهبنا إليه قول المبرد :" هذه الأفعال المضارعـــة فـــي الإعـــراب كالأسماء المتمكنة . والأسماء إذا دخلت عليها العوامل لم تغير أبنيتها ، إنما

---

[1] الكتاب : ٤٧٦/١

تُحدث فيها الإعراب،وكذلك هذه الأفعال تلحقها العوامل فتحدث لها الإعراب.."[١] . ولأن معمول " أن" فعل مضارع أو ماض في معنى المضارغ . فلذلك رأينا أن وصلتها تؤول بمصدر مرفوع أو منصوب أو مجرور . وهذا ما أكده سيبويه بقوله : " من زعم أن الأفعال ترتفع بالابتداء فإنه ينبغى له أن ينصبها إذا كانت في موضع ينتصب فيه الاسم ، ويجرها إذا كانت في موضع ينجر فيه الاسم ،ولكنها ترتفع بكينونتها في موضع الاسم .." [٢]. وربما ظهر لنا هنا معنى التمكن في (أنْ) الذى جاء في نص المبرد.

* " وأن " تدخل على الأفعال المضارعة المتوقعة التى لا يقين فيها ، فتنصبها - يقول سيبويه " وليست أن " التى تنصب الأفعال تقع في هذا الموقع ، لأن ذا موضع يقين وإيجاب " فأما ظننت وحسبت وخلت ورأيت فأنّ (أنْ) تكون فيها على وجهين :على أنها تكون (أن.) التى تنصب الفعل ، وتكون الثقيلة ، وإن شئت نصبت فجعلتهن بمنزلة خشيت ، وخفت فتقول: ظننت أن لا تفعل ذلك، ونظير ذلك (تظن أن يُفعل بها فاقرة) ، (إن ظنا أن يقيما حدود الله)"[٣]

ويحذف حرف الجر مع (أنْ) ،حتى استحسن ذلك النحاة . واستشهد سيبويه على ذلك بقول الشاعر:

أمرتُك الخير فافْعل ما أُمِرْتَ به فقد تركتُك ذا مال وذا نشب[٤]

* ومن الاختصاص فيها أن تكون مفسرة.

---

[١] المقتضب: ٣/٢

[٢] الكتاب : ٤١٠/١ يرجع مطبعة هارون

[٣] الكتاب :٤٧٦/١

[٤] الكتاب : ١٧/١

قال سيبويه :" وقال جل ذكره: (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ) [البقرة ٩٠]. ثم قال "أن يكفروا " على التفسير ، كأنه قيل له : مـا هـو ؟ فقـال : هـو أن يكفروا."[1] .

* وأن تقبل إضافة الأسماء إليها.

ففي هذا يقول سيبويه:" وتقول إذا أضفت إلى " أنْ"الأسماء :إنه أهـلُ أنْ يفعل ، ومخافة أن يفعل ، وإنْ شئت قلت : إنه أهلٌ أنْ يفعل ، ومخافـة أنْ يفعل " [2].

***وتأتي في معنى المقاربة**

يقول سيبويه :" وتقول : عَسَيْت أن تفعل ، فأن ها هنا بمنزلتها في قولـك: قاربت أن تفعل ،أي قاربت ذاك ، وبمنزلة دَنَوْتَ أن تفعل "[3] . ولذلك فـهي محمولة على عسى ، كما حُملت على " كان" . يقول سيبويه في معنى هـذا : "وعسى محمولة عليها " أن" ،كما تقول : دنا أن يفعلوا ، وكما قالوا :أخلولقت السماء أن تمطر ، وكل ذلك تكلم به عامة العرب."[4].

ويترتب على ما جاء في كلام سيبويه أنّ (أنْ) إذا وقعت بعد "عسى"

و " اخلولق" لم تؤول بمصدر، كما هو ظاهر كلام سيبويه ، يقـول :" .. فلا تقول : عسيت الفعل،ولا عسيت للفعل . وتقول : عسـى أنْ يفعـل ، وعسى أنْ يفعلوا ، وعسى أن يفعلا، وعسى محمولة عليـها "أنْ" . ويقـول أيضا :"واعلم أنهم لم يستعملوا عسى فعلاً . استغنوا بأنْ تفعل عن ذلك ،كمـا

---

[1] الكتاب : ٤٧٦/١

[2] الكتاب : ٤٧٦/١

[3] الكتاب :٤٧٦/١

[4] الكتاب : ٤٧٦/١

استغنى اكثر العرب بعسى عن أنْ يقولوا : عسيا ، وعَسَوا، وبــ (لَوْ) أنّـــه ذاهبٌ عن : لو ذهابه ، ومع هذا فإنهم لم يســـتعملوا المصـــدر فـــي هـــذا الباب،كما لم يستعملوا الاسم الذى في موضعه يَفْعَل في عسى وكاد، فـــترك هذا لأن من كلامهم الاستغناء بالشئ عن الشئ"[١].

- ومن اختصاص (أنْ) :الإضمار

لإضمار "أنْ" مواضع وقف عليها النحاة في مصنفاتهم على النحو التالى:

أ- بعد اللام المكسورة التى يسميها النحاة بلام التعليل

يقول سيبويه:" وأما اللام في قولك : جئتك لتفعل - فبمنزلة "إنْ" في قولك :إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر . إن شئت أظهرت الفعل ههنا وإن شـئت خزلته وأضمرته ، وكذلك " أنْ" بعد اللام إن شئت أظهرته، وإن شـــئت أضمرته "[٢] . ذلك يعنى أن الإضمار هنا جائز .

ب- وبعد " أو " العاطفة بشرط أن يكون المعنى " إلا أنْ يكون" .

يقول سيبويه :" واعلم أن معنى ما انتصب بعد "أو" علـى " إلا أنْ" ،كما كان معنى ما انتصب بعد الفاء على غير معنى التمثيل ،تقول: لألزمنك أو تقضينى ، ولأضربنك أو تسبقنى ، فالمعنى : لألزمنك إلا أن تقضينى ، لأضربنك إلا أن تسبقنى .هذا معنى النصب ."[٣]

ومن قبيل ما استشهد به سيبويه على ذلك ، قول امرئ القيس:

فقلت له : لاتبكِ عينُكَ إنَّما نُحاول مُلكا أو نموتَ فتُعْذَرا[٤]

---

[١] سيبويه : الكتاب ص٥٨

[٢] الكتاب : ٤٠٨/١

[٣] الكتاب : ٤٢٧/١

[٤] انظر الكتاب :٤٢٧/١

وعلى ذلك يكون التقدير : إلا أن نموت.

وكذلك قول زياد الأعجم:

وكنتُ إذا غمزتُ قناة قومٍ كَسَرْتُ كعوبها أوْ تستقيما[١]

على معنى : إلا أن تستقيم

ج- وبعد حتى تُضمر " أن ".

يقول سيبويه :" واعلم أن "حتى" تنصب على وجهين : فأحدهما أن تجعل الدخول غاية لمسيرك ،وذلك قولك : سرت حتى أدخلها ، كأنك قلت : سرت إلى أن أدخلها فالناصب للفعل ههنا هو الجار في الاسم إذا كان غاية . فالفعل إذا كان غاية منصوب ،والاسم إذا كان غاية جرٌّ . وهذا قول الخليل . وأما الوجه الآخر: فأنْ يكون السير قد كان والدخول لم يكن، وذلك إذا جاءت مثل "كي" التي فيها إضمار "أن" وفي معناها ، وذلك قولك : كلمتك حتى تأمر لي بشئ."[٢] معنى ذلك أن حتى تنصب بإضمار (أن) في حالين :

الأولى : تكون بمعنى (إلى أن) ، أي تكون غاية على نحوما ذكر سيبويه من أن الدخول غاية من السير ، في قوله : سرت حتى أدخلها.

وقول سيبويه هنا بأن الناصب للفعل هو الجار في الاسم تفسيره أن عوامل الأفعال لا تكون هي عوامل الأسماء . فمن ثم لا يخلو الأمر من أن يكون هناك إضمار ، فتضمر "أن" ويبقى عملها ، ثم هي ومعمولها في تأويل المصدر الذي يكون ههنا مجرورا بحتى التي هي من عوامل الأسماء في الجر ، فعلى ذلك يكون تركيب:

---

[١] انظر الكتاب : ٤٢٨/١

[٢] الكتاب:٤١٣/١

[سرت حتى أدخلها]

فى تأويل : [سرت حتى دخولها]

فهذا تأويل قول سيبويه من أن الناصب للفعل هو الجار في الاسم.

الثانية : إن كانت بمعنى "كى" وذلك لأنها شبيهة بـ"أنْ"

* وبعد الفاء أيضا .

يقول سيبويه : " ما تأتينى فتحدثنى فالنصب على وجهين من المعانى: أحدهما :ما تأتينى فكيف تحدثنى ، أى لو أتيتنى لحدثتنى . وأما الأخر : فما تأتينى أبداً إلا لم تحدثنى أى لو أتيتنى لحدثتنى ...[١] ويقول في موضع أخر: " وتقول :ما أنت منا فتحدثنا لا يكون الفعل محمولا على (ما) لأن الذى قبل الفعل ليس من الأفعال فلم يشاكله. قال الفرزدق:

ما أنت من قيس فتنبح دونها   ولا من تميم في اللها والغلاصم "[٢]

في النص الأول حدد سيبويه وجهين يُضمر معهما " أن".والنص الثانى يحدد لنا ضابط النصب بـ" أن" مضمره ، وذلك حينما يكون الثانى مخالفاً للأول ليس داخلا فيه . ولو شئنا لحملنا النصَّيين على مضمون واحد على هذا النحو:

أولا : إن القول بإضمار "أن" مرهون بخروج ما بعد الفاء مما قبلها.

ثانيا : إن صورة الخروج هذه تكون مشتملة على المعانى الآتية:

أ- في معرض النفى ،كما أشار سيبويه بقوله:

---

(١) الكتاب : ٤١٩/١ .

(٢) الكتاب: ٤٢٠/١ .

" ما تأتينى فتحدّثنى "

أو " ماتأتينى فكيف تحدثنى:

فالحديث معلق على الاتيان الذى هو سبب وشرط، فلا يكوز حديث ، حيث لا إتيان وربما كان هذا هو معنى انقطاع السبب بين الأول والثانى ، الذى عنى به سيبويه انقطاع الثانى من الأول .وزيادة في الإيضاح نقول : إن الفعل " تأتينى" محمول على أصل وجوده في التركيب ، يعني على أنه فعل مضارع مسبوق بحرف نفى ليس عاملاً فيه ، وأما " فتحدثنى "فحملة على إضمار " أن" لانقطاعه عن الأول كما قال سيبويه والنحاة من بعده .

ب-إقرار الأول ونفى الثانى ، يعنى إقرار الإتيان ، ونفى الحديث بعد الإتيان.

ج- وفى استشهاد سيبويه يقول الشاعر:

يانـاق سيرى عنقا فسيحا إلى سُليمانَ فَنَسْتَريحاَ

يكون معنى الأمر من المعانى التى تضمر بعدها أن بعد فاء السبب.

* ومن خصائصها أن تكون زائدة : يقول سيبويه :" ووجه آخر تكون " فيه لغواً نحو قولك : لما أن جاء .. وأما والله أن لو فعلت لأكرمتك "[١].

هذا ما عن لنا من اختصاصات لـ"أن" جاءت متناثرة هنا وهناك في كتاب سيبويه ، حاولنا أن نجمع بينها هنا على نحو ما نرى ، فلعل المحاولة قد أفلحت إن شاء الله.

---

[١] الكتاب :١/٤٧٥

والآن نستصحب المبرد في مقتضبه لنتعرف على تلك الاختصاصات في (أن) فنقول : إن المبرد تابع سيبويه على كل ما أورد من اختصاصات في(أن):

* فهي عنده والفعل " بمنزلة مصدره ، إلا أنه مصدر لا يقع في الحال . إنما يكون لما يقع إن وقعت على مضارع، ولما مضى إن وقت على ماض ."[1].

* وهي أمكن الحروف في نصب الأفعال ، كما أخبر نقلاً عن الخليل.

* وعند المبرد أنّ (أنْ) لا تلحق بعد كل فعل ." إنما تلحق إذا كانت لما لم يقع بعد ما يكون توقعا لايقينا ؛ لأن اليقين ثابت . وذلك قولك : أرجو أن تقوم يافتى ، وأخاف أن تذهب يافتى .كما قال عزوجل (**نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ**) [المائدة ٥٢] [2] ثم يزيد إيضاحا فيقول :" ولو قلت: أعلم أن تقوم يافتى لم يجز ؛ لأن هذا شئ ثابت في علمك ، فهذا من مواضع (أنّ) الثقيلة: نحو: أعلم أنك تقوم يافتى ."[3]

* ووافق المبرد سيبويه على مواضع إضمار (أنْ) [4] ، وعلى حذف حرف الجر معها ،[5] وعلى دخولها على " ما يكون توقعا لا يقينا ؛ لأن اليقين ثابت."[6] وكذلك وافق على كونها " زائده توكيدا . تقول : لما أن جاء ذهبت . والله أنْ لو فعلت . فإن حذفت لم تُخلل بالمعنى ."[7]

---

(١) المقتضب : ٢/٦، وانظر أيضا : ٢/٢٩، ٣/٥

(٢) المقتضب: ٢/٢٩

(٣) المقتضب : ٢/٢٩، ٣/٧

(٤) انظر المقتضب :٢/٦ وما بعدها

(٥) المقتضب :٢/٤ وما بعدها

(٦) المقتضب ٢/٢٩

(٧) المقتضب ١/١٨٨

وإذا كان ابن الخشاب رأينا له آراء يوافق فيها سيبويه والمبرد ، كأن تراه يذكر إضمار " أنْ" ،حين يقول :" وما عدا هذه الحروف الأربعة – يقصد أخوات "أن" – مما ينتصب بعده الفعل ، فبتقديرها يُعمل وعليها يحُمل ، وكله منصوب بإضمار " أنِ" خاصة "[1] ثم يذكر بعد ذلك تأويل " أن " مع معمولها بمصدر ، على نحو ما رأينا عند سيبويه والمبرد ، يقول: " (أن خاصــة دون غيرها من نواصب الأفعال : وهى " لن " و"كـــى" و" إذن" لأن " أن " مــع الفعل في تقدير اسم ، ولهذا صح دخول حرف الجر غير "حتىَ" عليــها " [2] ويؤكد على ذلك بقوله :"ولو رمت إدخال شئ من هذه الحروف الجارة التـــى دخلت على "أن" على بقية أخواتها لم يصح ،فكانت لهذا هى المضمـــرة دون أخواتها .."[3].

على أننا نرى ابن الخشاب متفردا في موضع اختصاص حين يذكر " أن " بوصفها أما في الباب، فهو يذهب إلى أنّ "أنْ " تطلب معمولها على أحد وجهين :

أحدهما : طلب العامل للمعمول إذا كانت ناصبة له

ثانيهما : طلب الموصول للصلة إذا أولت مع معمولها بمصدر

وربما كان هذا المعنى مفهوما من هذا النص الذى ذكر ، يقول :" واعلــم أن "أن" تقتضى الفعل اقتضاءين ؟ أحدهما : اقتضاء العامل المعمـــول ، إذا

---

[1] ابن الخشاب " أبومحمد عبـــد الله بـــن أحمـــد ت ٥٦٧ هــــ" : المرتجـــل ، تحقيـــق علـــى حيـــدر. دمشق١٩٧٢،ص:٢٠٥

[2] المرتجل : ص:٢٠٥

[3] السابقة والصفحة

كانت ناصبة له ، والأخر اقتضاء الموصول الصلة ، إذا كان معها مصـــدرا مقدراً ."[1] .

وابن يعيش يتابع على ما تابع عليه النحاة من أن " أن " أم البـــاب ، إذ يراها " الأصل من هذه الأربعة ..[2] وسائر النواصب محمـــول عليـــها ، وإنما عملت لاختصاصها بالأفعال ، كما عملت حروف الجر فـــي الأســـماء لاختصاصها بها ..[3] واختصاص " أن " النصب عند ابن يعيش مـــن قبـــل مشابهتها " أنّ " الثقيلة التى تنصب الاسم ،على النحو التالى:

* من جهة اللفظ حيث يتشابهان ، وإن زاد اللفظ في أحدهما عن الآخـــر " ولذلك يستقبحون الجمع بينهما كما يستقبحون الجمع بين الثقيليـــن ، فلا يحس عندهم : إن أنْ تقوم خير لك ، كما يستقبحون إن أنّ زيـــدا قائم يعجبنى . فى معنى : إن قيام زيد يعجبنى ."[4]

• من جهة المعنى ؛ إذ نرى :

" أن " + الفعل فى تأويل مصدر

و"أن" + الاسم + الخبر فى تأويل مصدر

فكما كانت المشددة ناصية للاسم جعلت هذه ناصية للفعل ."[5] فتكـــون " أن" نصبت لمشابهه " أن " الثقيلة بعد استحقاق العمل بالاحتصـــاص".[6] فكـــأنى

---

[1] السابق: ص:٢٠٢

[2] يقصد :" أن و" لن" و"كى" و"إذن".

[3] شرح المفصل : ١٥/٧

[4] شرح المفصل :١٥/٧

[5] شرح المفصل :١٥/٧

[6] السابق والصفحة ،انظر أيضا الأنبارى : أسرار العربية ،ص: ١٣٩ طبعة ليدن ١٨٨٦م.

فابن يعيش يريد أن يقول إن المشابهة حسب ، ليسب كافيه ، دون أن يكــون هناك اختصاص في العمل أولا.

ويتابع ابن يعيش كذلك على إضمار " أن " بعد:

- حتى
- اللام
- أو
- واو الجمع
- الفاء

فالفعل بعد هذه الحروف منصوب بإضمار "أن" لابها نفسها[١] .

وابن الحاجب يتابع على أن نصب المضارع بإضمار (أنْ) بعد "حتـــى" ولام كى ، ولام الجحود ، والفاء، والواو ، وأو " من خصـــائص " أن".[٢] ومن خصائصها المميزة عن ابن الحاجب أيضا أنها مثال، يشبه به ، ذلك أنه يرى أن (أنَّ) المثقلة إذا خففت لا تقع إلا بعد فعل التحقيق، " كـــالعلم ومــا يؤدى معناه كالتبيين ، واليقين ، والانكشاف ، والظهور ، والنظر الفكــرى، والإيحاء ،والنداء ، وبعد فعل الظن بتأويل أن يكون ظنا غالبا .."[٣] ثم يقـول بعد هذا " وذلك أنها بعد التخفيف شابهت لفظا ومعنى "أن" المصدريـــة "[٤] . فالمشابهة جاءت من طريق اللفظ . ومن طريق المعنى فأما مشـــابهة اللفـظ فظاهرة في البنية التركيبية من الهمزة والنون ، وأما مـــن جهـــة المعنـــى "

(١) انظر السابق ،ص :١٩

(٢) شرح الكافيه/٢/٢٣٢

(٣) شرح الكافيه : ٢٣٣/٢

(٤) السابقة والصفحة

فلكونهما حرفى المصدر ، فأريد الفرق بينهما "[1] ومن ثم ألزموا قبل المخففة فعل التحقيق كالعلم وما يؤدى معناه . وعلى ذلك يمكن أن نتصور " المسألة على النحو التالى :

- فعل التحقيق + أن المخففة من الثقيلة.
- فعل التحقيق ينتفى معه مجئ أن المصدرية.
- الاختصاص في الظاهر معتبر.
- والاختصاص في المعنى معتبر أيضا.

ويعرض الاسترابادى لدخول (أنْ) المخففة على الجملتين:

أ- الاسمية ، نحو :" أن هالك كل من يخفى وينتعل"

ب- والفعلية الشرطية ،نحو :" أن لو استمعتم "و"أن لو استقاموا"

فيرى أن هذين التركيبين:

- أن مخففه + اسمية
- أن مخففة + فعلية شرطية

لا يكون معهما مصدر مؤول ، ولذلك ذهب إلى أنّ هذين التركيبين صورتان كافيتان للتفريق بين " أن" المخففة والمصدرية فلم " يحتاجوا إلى فرق آخر ؛ إذ المصدرية تلزم الفعلية المؤولة معها بالمصدر ، فلا يحتمل أن تدخل على الاسمية ولا الشرطية .

ويلفت الاسترابادى إلى أنموذج آخر ينجلى به الفرق بين "أن" مخففة ومصدرية إذ يقدم لنا هذين الشكلين:

---

[1] شرح الكافيه : ٢٣٣/٢

أ- " أن" + فعل غير متصرف

كقوله تعالى :(وأن ليس للإنسان)

(وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) [الاعراف ١٨٥]

في هذه الحالة تكون" أن " مخففة.

والضابط في هذا كما يرى الاستراباذى أن " المصدرية لا تدخل على الأفعال غير المتصرفة ، لأنها تكون مع الفعل بعدها بتأويل المصدر ، ولا مصدر لغير المتصرف ."(١)

ب- " أنْ" + فعل منصرف

هنا نوشك أن نقع في ارتكاس ، لأن "أن" المصدرية لا تدخل إلا على متصرف فلو كانت المخففة فصلت من الفعل بأحد هذه الأشياء

الأول : السين نحو : " علم أن سيكون"

الثانى : " سوف "نحو :" سوف يكون"

الثالث : "قد" نحو :" ليعلم أن قد أبلغوا"

الرابع : " حرف نفى " نحو: " علم أن لم يقم "، "ولن يقوم"

وهنا يقول أبو على الفارسى: " إذا وقعت السين في الفعل المستقبل بعد أنْ ، لم تكن أنْ الناصبة ..ولم تكن إلا المخففة لأن السين للاستقبال."(٢)

وعلة ذلك أن (أن) المصدرية " لا يُفصل بينها وبين الفعل بشئ من الحروف المذكورة ، لكونها مع الفعل بتأويل المصدر معنى ، فلا يفصل بينها وبين ما

---

(١) شرح الكافية : ٢/٢٣٣.

(٢) الفارسى" أبو على الحسن ابن أحمد ت ٣٧٧ : التعليقة على كتاب سيبويه ،ص:٢٦٦١٢، تحقيق د. عوض القوزى : الطبعة الأولى ١٩٩١م ،دار المعارف بمصر.

يؤثر فيها ..." [١]. وقد يسأل سائل: إن هذا لا يعد اختصاصاً لـــ(أن) ، لأن "لو" و"كي" المصدرتين يشتركان معها في هذا الاختصاص . يجيب عن هـذا الاسترابإذى بقوله :" بلى قد يفصل " لا" بين المصدرية والفعل لكثرة دورانها في الكلام تدخل في مواضع لا تدخلها أخواتها ، نحو قولـــك : جئـت بـلا مال."[٢] وهي إجابة سديدة على ما أرى ، لأنها تتضمن على غـــير قصـد اختصاصا لـــ(أن) يتمثل في كثرة الشيوع والـــدوران علـى الألسـنة فـي الاستعمال اللغوى . وهو ما يمكن أن نسميه بتلقائية الاختصـــاص، لأنــه - فيما يعن لى - ليس من قبيل الاختصاص المُتوصل إليه من استقراء النمـاذج اللغوية ولا هو من قبيل الاختصاص المتعارف عليه بين النحاة لذلك رأينا أن نسميه بهذه التسمية.

ثم يتابع ابن الحاجب والاسترابإذى على ما قال به سيبويه والمـــبرد وابـن يعيش من نحو مجئ " أن" مفسرة وزائدة .[٣]

وابن هشام متابع على ما جاء به النحاة ، فأن عنده :

- تؤول مع معمولها بمصدر ،كما فيقوله تعالى :" (وَأَنْ تَصُومُـوا خَيْرٌ لَكُمْ) [البقرة ١٨٤] وكما في قوله :"(وَالَّــذِي أَطْمَـعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي) [الشعراء ٨٢].
- وتأتى مفسرة ، وهى المسبوقة بجملة فيها معنـــى القـول دون حروفه [٤] ، نحو (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْــكَ) [المؤمنـون ٢٧](وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا) [ص ٦].

---

[١] السابق والصفحة

[٢] السابقة والصفحة

[٣] انظر السابقة ص٢٣٢-ص٢٣٥

[٤] أوـــالمالك :١٥٩/٤

- وتأتى زائدة وهى : التالية لـ(لماّ) نحو **(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ)** [يوسف ٩٦] والواقعة بين الكاف ومجرورها ، كقوله :

" كأن ظبيةٍ تعطُو إلى وارقِ السَّلَمْ "[١]

هذه اختصاصات "أن" أما فى نواصب المضارع، طوفنا معها في مصنفات النحاة كى نقف على ما عنّ لنا منها حسبما تراءى ونحن نستقصى النصوص ثم على منوال المنهج في البحث نرى ماذا يقول المفسرون عن هذه الأم .

في تفسير قوله تعالى**(وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ)** [البقرة ١٨٤] يقول أبو حيان :" وقرأ أبى :" والصوم خير لكم " هكذا نقل عن ابن عطية ونقل الزمخشرى أن قراءته " والصيام خير لكم "[٢] هذا دليل على أن (أن) تؤول مع معمولها بمصدر ،كما يقول النحاة ، وخاصة سيبويه الذى رأينا قوله :" .. تكون فيه "أن" وما تعمل فيه من الأفعال بمنزلة مصادرها "[٣].

في قوله تعالى **(لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)**[البقرة ٢٣٣].

يقول أبوحيان :" وقُرئ" أن يُتم" برفع الميم ...وقد جاز رفع الفعل بعد أن فى كلام العرب في الشعر . وأنشد الفراء رحمة الله تعالى :

أن تهبطن بلاد قوم   يرتعون من الطلاح

وقال آخر :

---

[١] السابق والصفحة

[٢] البحر المحيط : ٣٨/٢

[٣] الكتاب :٤٧٥/١

أنْ تَقْرانِ على أسْماءَ ويْحُكُما   مِنِى السلامَ وأنْ لا تُبْلِغا أحَدَا

والذى يظهر أن إثبات النون في المضارع المذكـــور مـــع أن مخصـــوص بضرورة الشعر ، ولا يُحفظ أن غير ناصبة إلا في هذا الشعر ."[1]

هنا يظهر لى أن رفع المضارع بعد أن في الشعر من خصائص (أنْ) التـــى تنفرد بها .

وفى قول الله عزوجل (وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا) [ص ٦]

يقول أبو حيان :" وتكون "أن " مفسرة لذلك المحذوف *.. وقال الزمخشرى : وأن بمعنى أى : لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلمـوا ويتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقهم مضمنا معنـــى القـول والأمـر بالمشى، أى بعضهم أمر بعضا ." [2] ويتابع أبوحيان كلامه عن " أنْ" في هذه الآية الكريمة قائلا :" ويجوز أن تكون "أن" مصدرية أى وانطلقوا بقولـــهم : امشوا وقيل الانطلاق هنا الاندفاع في القول والكـــلام ، وأن مفســـرة علـــى هذا."[3].

من النص السابق يظهر لنا أنّ أحوال (أنْ) عند المفسرين لا تكاد تندعما جاء به النحاة ، فهى عندهم:

- مؤولة بمصدر.
- ومفسرة.

---

[1] البحر المحيط : ٢١٣/٢

* يقصد يتحاورون أن ---

[2] البحر المحيط : ٣٨٠/٧

[3] السابق والصفحة

- والفعل بعدها مرفوع في كلام الغرب في الشعر حسب ، مما جعلنا نذهب إلى أنّ ذلك يعد من خصائص " أنْ" ؛ لأنه من قبيل التفرد.

نخلص من كلام النحاة عن "أنْ" أنهم جعلوا معايير الأم فيها على النحو التالى:

١-التمكن فى " أنْ" أصل الاختصاص فيها.

٢-"أن" مع معمولها بمنزلة مصدر لا يقع في الحال ؛ لأنه توقع لا يقين.

٣-وهى مع معمولها بمعنى العلة ، أو المفعول لأجله أحيانا ، وجاء ذلك على صورتين:

الأولى : أن + الفعل

[أن يصيبك أمرُ تكرهه]

الثانية: حرف الجر+ "أن" والفعل بعدها

[لأنْ يصيبك]

٤- ومع " أنْ" بحذف حرف الجر.

٥- وتُحمل على " أَنْعِم " ، فقالوا:

[أنعم أنْ تَشُدَّه] ، أى بالغ في أن يكون ذلك هذا المعنى.

٦-وهى مفسرة.

٧- وتضاف إليها الأسماء.

" إنه أهلُ أنْ يفعل" . وإن شئت قلت " إنه أهلُ أنْ يفعل.

٨- وتأتى في معنى المقاربة ، ومن ثم حملوها على " عسى " كما حملوها على كان إلا أنهم لم يؤولوها بمصدر مع عسى

٩- وتضمر " أن" في المواضع التى المحنا إليها.

١٠- وهى زائدة ،كما في قول سيبويه.

" وأما والله أن لو فعلت "

١١- تطلب " أن" معمولها على أحد وجهين:

أحدهما : طلب العامل للمعمول إذا كانت ناصبة له.

ثانيهما : طلب الموصول للصلة إذا أولت مع معمولها بمصدر.

١٢- مشابهتها " أن" لفظا ومعنى.

تلك إذا معايير الاختصاص في " أن " استقصيناها في مصنفات النحاة، كى نصل إلى معنى الأم في الباب النحوى الذى يدور حوله هذا البحث.

الفصـــل الخامس

باء القسم

يصرح بعض النحاة بأن الباء أصل القسم. فهذا المبرد يقول في باب القسم؛" فهو والواو[1] تدخلان على كل مقسم به، لأن الواو في معنى البـــاء؛ وإنما جعلت مكان الباء، والباء هي الأصل .."[2] وإبن هشام يجعل القسم من معانى الباء ، فيقول :" وهو أصل أحرفه.."[3].

وعلى هدى هذه النصوص ومثلها عند آخرين ، نقدم الباء أصلاً في باب القسم، أو أما فيه على النحو الذى نسير عليه. يقول سيبويه:" وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر، وأكثرها الواو ثم الباء، يدخلان على كل محلوف به، ثم التاء، ولا تدخل إلا في واحد.."[4] هنا نسجل هذه الخواطر:

- يذكر سيبويه أن الواو والباء من حروف القسم، وأن الواوأشيع في الاستعمال، ثم تأتى الباء.
- وتختص الواو والباء بالدخول على كل محلوف به، وهذا يُعد اختصاصاً لهما.
- قصر" التاء" على لفظ الجلالة.

على أنه يُخيل لنا ونحن نتابع نصوص سيبويه ، أن مسألة الأصل بين الواو الباء، مسألة غير محسومة، لم يقل فيها برأى قاطع، يدلك على ذلك أنه يرى أن الذى قبل المحلوف به- إن لم يكن الواو أو الباء- يكون عوضا عن الواو، ولم يقل إنه عوض عن الواو والباء مما يوهم بدفع أصالة البـــاء،

---

[1] يقصد الباء

[2] المقتضب:٣١٧/٢ ، وانظر أيضا ،ص: ٣١٩

[3] المغنى : ١٢٣/١.

[4] الكتاب: ١٤٣/١

ومن ثم يدفع الاختصاص القائم بينهما ، فى نصه الذى قدمناه. ويقوى ذلـــك أنه لما رأيناه يتحدث عن حروف القسم، نص على أن أكثرها الواو، ثم الباء. إن جماع ذلك في هذا النص:" هذا باب ما يكون ما قبل المخلوف به عوضـــا من اللفظ بالواو.. وذلك قولك:إى ها الله ذا ،تكتب ألف" ها" لأن الذى بعدهـــا مدغم.ومن العرب من يقول: إى هلّله ذا فيحذف الألف التى بعد الـــهاء، ولا يكون في المقسم ههنا إلا الجر ؛ لأن قولهم "ها" صار عوضا عــــن اللفــظ بالواو ، فحذفت تخفيفا على اللسان."[1] ألا ترى أن " ها" عوض عن الـــواو حسب؟ إننا لانزال نذكر قول سيبويه: ".. وأكثرها الواو ، ثم الباء، يدخِــلان على كل محلوف به." لذلك أحسب أنه كان لزاما أن يقول:" عوضا عن اللفظ بالواو والباء" حتى لا نقع فيما نحسبه جموحاً وشططا.

وحروف القسم التى ذكرها سيبويه. إنما تجرى على القســـم مـــن طريق الإضافة ، يعنى أننا نضيف الحلف إلى المحلوف به . يؤكد هذا مـــا نقله سيبويه عن الخليل حين يقول:" وقال الخليل: إنما تجئ بهذه الحـــروف؛ لأنك تضيف حلفك إلى المحلوف به ، كما تضيف مررت به بالبـــاء، إلا أن الفعل يجئ مضمرا في هذا الباب والحلف توكيد." [2] هذا النص قـــد يبـــدو مقطوع الصلة عن حديث الأصل بين الواو والباء ، ولكن الحق أنـــه منـــه موصول بسبب متين ، وتفسير ذلك أن سيبويه -بما نقل عن الخليـــل جعـــل القسم إضافة حلف إلى محلوف به، وذلك عنده كإضافة " مررت به بالبـــاء" . ويمكن أن نتخيل ذلك على النحو التالى:

والله

في مقابله ← مررت به

---

[1] الكتاب:٣/٤٩٩

[2] الكتاب : ٣/٤٩٧

بالله   في مقابله ←── مررت به

حيث تعدى الفعل المحذوف الدال على القسم إلى المحلوف بـــه ، كمـــا تعدى المرور بالباء.

بعد هذا نلمح مفارقه في كلام سيبويه على ما أبين:

أولا : رأينا الواو تارة قرينة الباء في الاختصاص.

ثانيا : ثم تارة تؤخر الباء عن الواو ؛ لأن الواو أجرى في الإستعمال.

ثالثا : وطوراً تبدل من الواو حروف أخرى ، ومقتضى الكلام أن يُبدل مـــا يُبدل من الواو والباء معاً - هذا وجه في المفارقة ، ينضاف إليه وجـــه آخر أظنه من الأهمية بمكان، وأنا أفسره بما يأتي :

إنني أرى سيبويه يقول بأصالة الباء دون أن يعمد إلى القول صراحة بهذا، ألا ترى أنه يجعل العلاقة بين حروف القسم ، والمحلوف بـــه كعلاقـــة المرور بالباء؟ إنه لا سبيل لتعدية المرور إلا بالباء. إن أصالـــة البـــاء فـــي القسم، هي بمثابة الرجوع إلى فهم تعدية المرور بالباء ، ليس غير.

والحق أننا لا نستطيع بعد ذلك أن نحدد ماجئنا به من اختصـــاص ، أهو للواو أم للباء؟ أم هو للواو والباء معا؟ ذلك أمر عسير بسبب ما رأينـــاه مفارقه في كلام سيبويه .ولولا ما نقله سيبويه عن الخليل حين جعل القسم من قبيل الإضافة التى تُعدى فعل القسم المحذوف إلى المحلوف به عن طريـــق حرف الجر .. الباء "لقلنا إن الاختصاص عند سيبويه ، للواو ، وليس للباء.

وباصطحاب المبرد في حديثه عن القسم ، نراه يحدد لنا المسألة مـــن أولها ، لافتا إلى أصالة الباء وما الواو إلا حرف مبدل منها ، على نحو مـــا يقدم لنا من نصوص . يقول:" فهكذا القسم في إضمار الفعل وإظهاره . وذلك

قوله:أحلف بالله لأفعلن، وإن شئت قلت: بالله لأفعلن.."[1] فبعد أن يبين أن حروف القسم بديل عن الفعل ، ينتقل إلى الحديث عن الواو والباء ، ذاهبا إلى أن الباء هى الأصل ، معللاً سبب ذلك، إذ يقول :" والباء موصلة ، كما كانت موصلة في قولك: مررت بزيد فهى والواو تدخلان على كل مقسم به؛ لأن الواو في معنى الباء، وإنما جعلت مكان الباء والباء هى الأصل ؛ كما كان في مررت بزيد، وضربت بالسيف يافتى ، لأن الواو من مخرج الباء. مخرجهما جميعا من الشفة، فلذلك أُبدلت منها.."[2].

هذا الذى نقلنا من نصوص المبرد، يؤكد ما يلى:

أولا : أصالة الباء في القسم.

ثانيا : إن ضابط الأصل فيها أنها تُضيف الحلف إلى المحلوف به ، وهذا من خصائص الباء، ولا يكون موجودا في الواو ، ولا فى التاء.

ثالثا : إن علة الأصل في الباء مباشرة ، حيث ذكرها أصلا ، ثم علل أصالتها بوجود معنى الإضافة فيها.

رابعا : ومن خصائص الباء أن يُجمع بينها وبين فعل القسم ،كما رأينا في كلام المبرد" أحلف بالله لأفعلن"

ثم يتابع المبرد على دخول التاء في " الله" سبحانه- وحده ، وتمتنع من الدخول في جميع ما دخلت فيه الباء والواو، إنه يقول؛ " وإنما امتنعت- أى التاء- من الدخول في جميع ما دخلت فيه الباء والواو ؛لأنها لم تدخل

---

[1] المقتضب:٢/٣١٧

[2] المقتضب:٢/٣١٧-٣١٨

على الباء التى هى الأصل ، وإنما دخلت على الواو الداخلة على الباء، فلذلك لم تتصرف."[1] .

ويتفق ابن الحاجب والاستراباذى على هذه الشروط لواو القسم:

١-يحذف معها فعل القسم ، فلا يقال .اقسم والله.

٢-لا تُستعمل في قسم السؤال ، فلا يُقال: والله أخبرنى ،كما يُقال: بك.[2]

ويُعلل الاستراباذى حذف فعل القسم مع الواو بكثرة استعمالها؛ إذ يراها أجرى على اللسان في القسم : ومن ثم "فهى أكثر استعمالا من أصلها،أى الباء."[3].

وتستوقفنى نصوص ابن الحاجب والاستراباذى حول مسألة الاختصاص في الواو والباء بما أعرضه على النحو التالى:

أولا :إن اختصاص الواو بحذف الفعل معها وجه مقلوب ، حقيقيته اختصاص الباء باثبات فعل القسم ، على نحو ما رأينا عند المبرد في صورة واضحة . وينسحب هذا على الكلام عن الضمير؛ إذ تدخل عليه الباء دون الواو.

ثانيا : إننا رأينا في البحث مسألة الشيوع من الدعامات المهمة التى ينبنى عليها القول بالاختصاص في أم الباب النحوى. وقد ثبت بالنصوص أن الباء أم في حروف الجر عند جميع النحاة ، ومن ثم لا يسوغ قلب الاختصاص في الأم، ليكون اختصاصا لأخواتها من أفراد الباب، ولعل كلام ابن الحاجب ، والاستراباذى كليهما، يؤكد قولنا ،إذ يقول ابن

---

(١) المقتضب: ٢/ ٣٢٠،١/ ٤٠

(٢) انظر الكافية: ٢/ ٣٣٤

(٣) الكافيه:٢/ ٣٣٤

الحاجب - بعد ما بين أن الواو والتاء تختصان بالظاهر- : " والباء أعم منهما في الجميع"[١].

وقد رأينا كلام الاستراباذى : حين قال :" فهى أكثر استعمالا- أى الواو -من أصلها فكيف تكون أكثر استعمالا من أصلها، وأصلها أعم منها ومن غيرها؟ إننى أرى المسألة في حاجة إلى فهم آخر ، أقول ذلك على استحياء شديد ، لأننى منذ أن بدأت أتابع درس الباء - باعتبارها أما - عند النحاة ، لم أجدنى إلا والنفس فيها شئ من كلام النحاة في هذا الصدد ثم إن تفسيرهم بأن الواو يدل من الباء لقرب المخرج مسألة لم تسكنتى من إقناع، ولم تفلح محاولات الفكر أن يتقبلها بقبول حسن إذ بدا الأمر على وجهه أخرى تُنادى بأن لماذا لا تكون الواو حرفا آخر من حروف القسم ؟ ليس شرطا أن يكون بدلا من الباء ، وإنما هو حرف له استعمالاته التى قصرها الاستعمال على الظاهر دون المضمر ومنع فعل القسم معها، وغير ذلك مما لها من أوجه خاصة بها في الاستعمال.

ثالثا : ثم إن قول الاستراباذى بأن اختصاص الواو " بالحكمين الأخيرين لكونها فرع الباء وبدلاً منها"[٢] ، قول فيه نظر على ما يبدو لى ؛ إذ أراه يوهم بأن الحكم الأول المختص بحذف فعل القسم معها، مقطوع الصلة عن الباء أصلا وبدلا مما عساه أن يؤكد ما ذهبت إليه من أن الواو حرف من حروف القسم له استعمالاته التى لا يند عنها، مثله في ذلك مثل الباء، والتاء، وهو عندى أقمن من أن يكون بدلا عن الباء لقرب مخرج ، أو لعله أخرى. على أن الذى يقوى أصالة الباء في القسم

---

[١] الكافيه :٣٣٤/٢

[٢] الكافيه : ٢٣٤/٢

قول ابن الحاجب:" وإنما حكم بأصالتها ، لأن أصلها الإلصـــاق، فـهي تلصق [١]فعل القسم بالمقسم به.." إن هذا الالصاق لهو معنى الإضافــة في الباء على النحو الذى رأينا عند المبرد ، وإنه ليدعم ما قلنا به ، مـن أن الواو يجب أن تكون حرف قسم برأسه غير مبدل من حرف غـــيره شريك له في المخرج أو غير شريك.

والباء عند ابن يعيش موصلة " لمعنى الحلف إلى المحلوف به، وقد يحذف الفعل تخفيفا لكثرة القسم.."[٢] وهى عنده " أصل حروف القسم ؛ لأنها حرف إضافة ومعناها الإلصاق."[٣]. الذى هو بمعنى الإضافة. يدل على ذلك قوله " .. فأضافت معنى القسم إلى المقسم به ، وألصقته به..كما توصل الباء المرور إلى الممرور به في قولك : مررت بزيد."[٤]وهذا قول أراه مؤيداً لمـا ذهبت إليه من أن الواو يجب أن تُدرس بوصفها حرف قسم قائماً بذاته، غـير مُبدل منه حرف آخر.

ولقد ذهب ابن يعيش مذهب السابقين من النحاة ، حين جعل الـواو مبدلة من الباء باعتبار المخرج، إذ" الواو والباء جميعا من الشفتين "[٥] بيـد أنه لم يتوقف عند مسألة المخرج حسب ، بل حمل على المعنى، ومن الحمـل على المعنى سادت الواو في الاستعمال. ذلك ما أحسبه أدنى للعقــل ثـم إن تفسير الحمل على المعنى عند ابن يعيش قوامه " أن الواو للجمـــع، والبـاء للإلصاق، فهما متقاربان؛ لأن الشئ إذا لاصق الشئ، فقد اجتمع معه، فلمـــا وافقها في المعنى والمخرج حُملت عليها، وأنيبت عنها وكثر استعمالها حتـى

---

[١] الكافيه: ٣٣٤/٢

[٢] شرح المفصل٩٩/٩

[٣] شرح المفصل:٩٩/٩

[٤] السابق .

[٥] السابق

غلبتها، ولذلك قدمها سيبويه في الذكر.. [١] ألا ترى أن ابن يعيش قد جاء بما ذهبت إليه، إن الواو ما كانت لتكون في القسم لولا أنها محمولة على الباء في المعنى، ثم تصادف أنها شركة معها في المخرج على حد قول النحاة، فأدخل المخزج في الاعتبار، ومن هنا كان ما ذهبت إليه من أن الباء حرف في القسم أصيل فيه، والواو حرف في القسم، ليس بذى أصل ، وإنما هو محمول على الأصل ، وإن ساد. هذا ما أحسبه قول الفصل في تفسير بدل الواو من الباء، يدلك على ذلك أن مفهوم البدل- كما نراه عند ابن يعيش- يجب أن يختص ببنية الكلمة، ذلك عند كلامه عن بدل التاء من الواو ، إنه يقول :" والتاء بدل من الواو.. وإنما أبدلت منها ، لأنها قد أُبدلت منها كثيرا ، نحو قولهم تجاه ، وتراث ، وهما " فِعال" من الوجه والوراثة.."[٢] أليس ذلك الإبدال في صلب الكلمة؟

ويتابع ابن يعيش بعد ذلك على اختصاص الباء بالدخول على المظهر والمضمر، وأنها تُجامع فعل القسم.[٣] وهي تختص أيضا بالاستعطاف والتقريب إلى المخاطب.[٤]

وبذهب ابن عصفور الأشبيلى مذهب ابن يعيش، حين يرى الحمل على المعنى تفسيراً لإبدال الواو من الباء، فضلاً عن المخرج الواحد. إنه يقول:" والواو بدل من الباء، وإما أُبدلت منها لأمرين:

أحدهما : أن معنى الباء قريب من معنى الواو،لأن الواو للجمع والباء للإلصاق والإلصاق جمع في المعنى.

---

[١] شرح المفصل : ٩٩/٩

[٢] شرح المفصل:٩٩/٩

[٣] شرح المفصل ١٠٠/٩

[٤] السابق

والآخر : أنها من حروف مقدم الفم [١]

على أننا نرى ابن عصفور يؤكد على أن معنى البدل يجب أن يكون مفصلا ببنية الكلمة، حين يقول : " والأصل هو الباء ، والتاء بدل من الواو ، وذلك أنها لا تخلو من أن تكون بدلا من الواو أو من الباء فلا ينبغي أن تجعل بدلا من الباء ، لأن التاء لم يكتب إبدالها من الباء في موضع وقد ثبت إبدالها من الواو في مثل تراث، وتخمه ، وتأه، فينبغي أن تجعل في هذا الباب بدلا من الواو."[٢] إن المعتبر إذاً في تفسير معنى البدل أن يكون البدل متصلا ببنية الكلمة، وقد شاع إبدال التاء من الواو، وليس الشائع أن تبدل الواو من الباء، فلم يبق إلا أن تحمل عليها على النحو الذى تقدم.هذا معنى كلام ابن عصفور. فإذا كان الأمر كذلك؛ أى إبدال الواو تاءً وهى أصل، فكيف نقبل الرأى بالإبدال؟ إننى أرى أن تكون موقيما خاصاً بالقسم.

ثم يتابع ابن عصفور على:

أ- دخول الباء على كل محلوف به ، ظاهر نحو : بالله لأفعلنّ.

ب- ودخول الباء على المضمر كقوله:

رأى برقاً فأوضع فوق بكرٍ ... فلا بك ما أسال ولا أغاما

أي: فلا وحقك لا أسأل ولا أغام.[٣] وقول الآخر

ألا نادت أميمةُ باحتمالٍ ... لتُحْزِنني فلا بكِ ما أبالى.

أى : فلا وحقك ما أبالى [٤]

---

[١] ابن عصفور الأشبيلى(ت٦٦٩هـ): شرح جمل الزجاجى(الشرح الكبير) تحقيق د. صاحب أبو جناح بدون دار نشر ولا سنة طبع،٥٢٥١٢٠

[٢] شرح الجمل: ٥٢٥/٢

[٣] انظر شرح الجمل: ٥٢٣/٢

[٤] السابق ٥٢٤،٥٢٣

والآن مع حديث الباء عند المفسرين

قوله تعالى :" **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ**" [الانبياء ٥٧]

يقول أبو حيان في كلام له حول هذه الآية الكريمة موجهاً كلاماً للزمخشرى:" قال الزمخشرى: فإن قلت ما الفرق بين التاء والباء، قلت : إن الباء هى الأصل، والتاء بدل من الواو والمبدل منها، وأن التاء فيها زيادة معنى ، وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهُّل الكيد على يده وتأتِّيه، لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره" [١] ثم يقول أبو حيان - رداً على الزمخشرى:" أما قوله الباء هى الأصل ؛ وإنما كانت أصلاً ، لأنها أوسع حروف القسم ؛ إذ تدخل على الظاهر والمضمر ، ويُصرح بفعل القسم معها وتُحذف. وأما أن التاء بدل من باء القسم فشئ قاله النحويون، ولا يقوم على ذلك دليل ، وقد ردّ هذا القول السهيلى. والذى يقتضيه النظر أنه ليس شئ منها أصلاً لآخر.."[٢].

بعد هذا الذى قدّم أبو حيان من كلام سديد، أرى أن أجمل في إيجار كلام السابقين من النحاة في المسألة.

- إن ملامح الأصالة في الباء لم تكن واضحة عند سيبويه ، حتى لتوشك أن تقع في حيرة ،أأنت بإزاء كلام عن الباء أم الواو.
- إن ضابط الأصل في الباء أنها تضيف الحلف إلى المحلوف به عند المبرد.
- ثم يذهب ابن الحاجب ، والاستراباذى ، وابن يعيش، وابن عصفور إلى أن الباء أصيلة في القسم من قِبل أنها للإلصاق الذى بمعنى الإضافة . وهذا فى معنى كلام المبرد أيضا.

---

[١] البحر المحيط: ٣٢١/٦

[٢] السابق والصفحة

أما إننى أرى كلام أبى حيان سديداً، فذلك أنه جـــاء مؤيـــداً لواقـــع الاستعمال من قِبل إنَّ الباء حرف في القسم له خصائصه فـــي الاســـتعمال ، والواو يجب أن تكون حرفا له خصائص أخرى في الاستعمال، تنأى به عـن أن يكون بدلاً من حرف آخر . وقد جاء كلام أبى حيان كفلق الصبح، إذ نظر إلى كلام النحاة، فإذا هو لا ينهض على دليل، وما الأمر في مسألة الأصـــل إلا أنها" أوسع حروف القسم" من حيث إنها:

- تدخل على الظاهر.
- وتدخل على المضمر.
- ويصرح بفعل القسم معها.

إلى آخر ما قال به النحاة في مسألة أصالتها في الباب" الذى عده أبو حيـــان سعه فى الاستعمال ، والقول بأن حرفا أصله من حرف آخر لا وجـــود لـــه عنده .إنه يقول: " وأما أن التاء بدل من واو القسم الذى أبدل من باء القســم ، فشئ قاله كثير من النحاة، ولا يقوم على ذلك دليل.. والذى يقتضيه النظـــر، أنه ليس شئ منها أصلاً لآخر" فهو يرفض أن تكون التاء مـــن الـــواو ، ولا الواء من الباء. وهو ما حاولت أن أؤكده في هذه السطور.

وقد عنّ لى أن أضرب صفحا عن هذا الرأى في مسألة أصالة الباء والواو ، وكان الباعث على ذلك أننى استكثرت على نفسى الأمر، فقلت ، ما بالك يا صاح يكون لك هذه الوقفة مع بعض النحاة وشيخهم فيهم، إننى – إذا - لفى ضلال مبين. وأخذ ذلك منى وقتا بين يقين الإيمان بطلاقـــة الفكـــر، والشك فى التطاول والاقتئات على العلماء الذين نحاول أن نفهم كلامهم. فأنَّى لى هذه الجرأة ؟ ولا يزال الأمر على هذه الصورة حتى: استبدت بى فكـــرة الانتهاء إلى قرار ؛ فبدأت أتابع منهج البحث حتى وصلت إلى نقطة النهايـــة،

وهى بدء رحلة التطواف مع المفسرين– ولم أكد أصدق ما وقعت عليه عينى من نصوص وأنا أتابع عند أبى حيان في بحره. حتى انتهى الأمر إلـــى مـــا قدمت . فحمدت الله ورجوت أن يكون توفيقا لا زيغا . وإنه لـــذاك إن شـــاء الله.

وتجمل بعد ذلك الأسس فى جعل الباء أما، كما ذهب النحاة:

أولا : وجود معنى الإضافة فيها.

ثانيا : ملازمتها فعل القسم.

ثالثا : إنها تعطى الشيوع فى الاستعمال للمحمول عليها وهو الواو، وأرى أن هذا دليلا على أصالتها ، ومن ثم أعطت صفاتها لما حمل عليها فشـــاع استعمال الواو فى القسم لهذا السبب.

الفصـــل السادس

واو العطف

ولو العطف أم في الباب ، لما لها من اختصاص قال به النحاة في مصنفاتهم؛ إما تصريحا، أو فهما من النصوص. فهذا شيخ النحاة سيبويه نلمح بين أسطره هذا الاختصاص في بعض نصوصه، يقول مثلا: " ومما يدلك أيضا على أن الفاء ليست كالواو، قولك: مررت بزيد وعمرو ، ومررت بزيد فعمرو، وتريد أن تُعلم بالفاء أن الآخر مربه بعد الأول. وتقول" لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، فلو أدخلت القاء ههنا فسد المعنى."[1] ويقول بعد ذلك:" إلا أن الواو لا يكون موضعها في الكلام موضع الفاء"[2] ويقول في موضع آخر:" ومما يُنتصب لأنه حال وقع فيه الفعل قولك: بعت الشاء شاة ودرهما.. واعلم أن هذه الأشياء لا ينفرد منها شئ دون ما بعده.. ولا يجوز أن نقول : بعت شائى شاة شاة وأنت تريد بدرهم...وصارت الواو بمنزلة الباء في المعنى ، كما كانت في قولك: كل رجل وصنعته في مغنى مع"[3]

فمن اختصاص الواو هنا:

- أنها لا تفيد ترتيبا، كما في الفاء مثلا.
- وهى تدل على الجمع والإشراك في حكم واحد.
- كما تجئ في معنى "الباء" وفى معنى "مع"

ثم يقول بعد ذلك -مؤكداً اختصاص الواو بما قدمنا- : " وأعلم أن الواو وإن جرت هذا المجرى فإن معناها ومعنى الفاء تختلفان،ألا ترى الأخطل قال:

---

(1) الكتاب :١/٤٢٥

(2) السابق

(3) السابق ص:١٩٦-١٩٧

لاتَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتي مِثْلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

فلو دخلت الفاء ههنا لأفسدت المعنى..."[١] . ويقول أيضـــا :" وتقـــول لا يسعُنى شئ ويَعْجِزَ عنك، فانتصاب الفعل ههنا من الوجه الذى انتصب فـــي الفاء، إلا أن الواو لا يكون موضعها في الكلام موضع الفاء . وتقول: ائتنى وآتيك ،إذا أردت ليكنْ إتيان منك، وأن أتيك تعنى: إتيـــان منـــك ، وإتيـــان منى."[٢] .

وفى الجزء الثانى من كتاب سيبويه ينص على أن من أهم خصائص الواو كونها لمطلق الجمع، إنه يقول :" وإنما جئت بالواو لتضم الآخر إلـــى الأول وتجمعهما، وليس فيه دليل على أن أحدهما قبل الآخر[٣] ".

ولا يذهب المبرد - فى معرض اختصاص الواو- بمناى عما ذهب إليـــه سيبويه . يقول مثلا في "باب حروف العطف بمعانيـــها": " فمنـــها الـــواو . ومعناها: إشراك الثانى فيما دخل فيه الأول ؛ وليس فيها دليل على أيهما كان أولا ؛ نحو قولك: جاءني زيد وعمرو.. كما قال الله عز وجـــل (واســـجدى واركعى مع الراكعين) [٤] والسجود بعد الركوع ."[٥] ويقول المبرد أيضـــا :" فإن جعلت الثانى جوابا فليس له في جميع الكلام إلا معنـــى واحـــد ، وهـــو الجمع بين الشيئين.وذلك قولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أى لا يكـــون منك جمع بين هذين "[٦].وعن مجئ الواو بمعنى الباء يقول أيضا :" ومن ذلك قولك: بعت الشاء شاة ودرهما. إنما تأويله على الحقيقة : بعت الشـــاء شـــاة

---

[١] الكتاب:١/ ٤٢٤-٤٢٥.

[٢] السابق:ص:٤٢٥

[٣] السابق:٢/٣٠٤

[٤] آل عمران:٤٣

[٥] المقتضب : ١/٠.

[٦] المقتضب :٢/ ٢٥

بدرهم... وتقدير قولك: الشاة شاة ودرهما: وجب لـــك الشـــاء ســـعرا شـــاة بدرهم.."[1] ألا ترى أن المبرد جاء بما أورده سيبويه في هذه المســـألة ؟ إن النصوص تؤكد هذا.

على أننى أذهب في تفسير كلام سيبويه بأن الواو في معنى الباء. وفـــى معنى "مع" إلى القول بأن معنى الإلصاق الذى في الباء ، ومعنى المصاحبـــة الذى فى " مع" هما من قبيل المعنى العام في الواو الذى ذهب إليه ســـيبويه ، وتابعه عليه المبرد: وهو كون الواو للجمع والإشراك. إنه قال:" وإنما جاءت الواو لتضم الآخر إلى الأول وتجمعهما".

ويؤكد ابن الحاجب على كون الواو للجمع المطلق يقول:"فـــالواو للجمـــع مطلقا ،ولا ترتيب فيها"[2] ولكن الاستراباذى يحدد أبعاد هذا الجمع المطلـــق على النحو التالى:

١-إن مراد النحويين بهذا الجمع أن لا يكون لأحد الشيئين ، أو الأشياء.

٢-ليس اجتماع المعطوف والمعطوف عليه في الفعل من الاجتمـــاع فـــي زمان أو فى مكان ؛ لأن نحو : جاء زيد وعمـــرو أو فعمـــرو، أو ثـــم عمرو، أى : حصل الفعل من كليهما على غير اتفاق في الزمان أو فـــى المكان :

٣-إن مطلق الجمع في الواو مسألة لا ينهض عليها دليل ، كمـــا يـــرى ، لوجود احتمالات عقلية تتمثل في:

أ- احتمال الحدوث من كليهما - أى زيد وعمرو- فى زمان واحد.

ب- أو يكون حصل من زيد أولا.

---

[1] السابق:٢/٢٥٦-٢٥٧

[2] الكافية :٢/٣٦٣

ح- أو من عمرو أولا [١] .

فهذه الاحتمالات الثلاثة يرى الاستراباذى أنها لا تقيم الدليل على المعنى المطلق للجمع الذى في الواو [٢]

ومن خصائص الواو التى أوردها ابن الحاجب والاستراباذى:

- أنها تُسعمل فيما يستحيل فيه الترتيب ، نحو المال بين زيـــد وعمـــرو، وتقاتل زيد وعمرو.[٣].
- وكذلك فيم الثانى فيه قبل الأول كقوله: أو جونة قدحت وفضَّ ختامُـها.[٤] ثم ذكر في هذا قوله تعالى(واسْجُدِى وارْكَعى)؛ إذ الركوع قبل السجود .
- وتجمع الواو وتشرك الأسمين فصاعدا في فعل واحد ، نحو : قام زيـــد وعمرو،أى حصل منهما القيام، ومرة تجمع الفعلين فصاعدا في اسم،نحو : قام زيد وقعد ، أى : حصل كلا الفعلين من زيد ، ومرة تجمـــع بيـــن مضمونى الجملتين فصاعدا في الحصول ، نحو : قـــام زيـــد ، وقعـــد عمرو."[٥] على أنه كان من الممكن أن يُعلم حصول مضمونى الجملتيـــن فيما لوكان العطف بغير الواو ، فلم كانت الواو حسب؟يجيب عن ذلك ابن الحاجب فيقول :" كان يحتمل احتمالا مرجوحاً أن يكـــون الكـــلام الأول غلطا ، ويحتمل حصول الأمرين . فبالواو صار نصـــا فـــي حصـــول الأمرين معاً."[٦] وعلى ذلك يمكن فهم ما يأتى:

---

[١] انظر الكافيه:٢/٣٦٣-٣٦٤

[٢] انظر الكافيه:٢/٣٦٤

[٣] انظر السابق والصفحة

[٤] انظر السابق والصفحة

[٥] الكافيه: ٢/٣٦٤

[٦] الكافيه : ٢/٣٦٤

أولا : إن نحو : قام زيد وقعد عمرو، دليل على حدوث القيام والقعود معاً.

ثانيا : وإن نحو : قام زيد ثم قعد عمرو، أو قام زيد فقعد عمـــرو فـهناك احتمالان:

أولهما : يكون الأول غلطاً.

ثانيهما: حصول أحد الأمرين.

* ومن خصائصها أن ترى "لا" النافية فارقة بينها وبين المعطـوف بـها . يقول ابن الحاجب :" والأكثر على أن لا يُعطف على المنفى بالواو ، إلا وبعد الواو " لا " نحو : ما جاءني زيد ولا عمرو"[١] وتفسيرذلك عنده

أ- أن حرف الواو إنْ كان في ظاهر الأمر له دلاله الجمع المشتمل على الاجتماع في وقت ، وعلى الترتيب إلا أنه لما كان يستعمل كثيرا للاجتماع في وقت[٢] فقد أُتى بـ"لا" لدفع وهم أن المنفـى هو المجئ من زيد ومن عمرو كليهما في وقت.

ب- وانتفاء الاجتماع في وقت لا ترتب مجئ أحدهما على الآخـر ، بيان بأن المراد نفى الاحتمالات جميعا .

- وكذلك تختـص الـواو بمجيئـها فيمـا لا يحتمـل الـترتيب، كقولـه تعالى(ولاتستوى الحسنةُ ولا السيئةُ) . وقوله(وما يستوى الأحيـاء ، ولا الأموات) ثم إذا أُريد نفى بعض الاحتمالات دون بعـض ، فلابـد مـن قيد.[٣]ويمكن أن نتصور هذا من خلال الأمثلة الآتية:

---

[١] السابق والصفحة

[٢] الاجتماع في وقت :كما في المفعول معه،ومع العطف

[٣] انظر الكافيه : ٣٦٥/٢

١-ما جاءنى زيد وعمرو معا فهنا قُيد المجئ بالمعية. فغير المعيـــة غـــير داخل فى الانتفاء.

٢-ما جاءني زيد أولاً ولا عمرو ثانيا . قيد الترتيب فى سواه ليس داخـلا في القيد.

فالانتفاء-إذا بعد التقييد باحدى الاحتمالات احتمالان آخران.

ويصرح ابن يعيش بأصالة الواو في العطف. يقول:" ..فمـــن ذلــك الواو ،وهى أصل حروف العطف[١]. ثم أصالة الواو في البـــاب " بأنـــها لا توجب إلا الاشتراك بين شيئين فقط في حكم واحد ، وسائر حروف العطـــف توجب زيادة حكم على ما توجبه الواو ، ألا ترى أن الفاء توجب الـترتيب ،" و"أو" الشك "وغيره و"بل" الإضراب"[٢] من هنا يذهب ابن يعيش إلى القـــول بأصالة الواو ، من حيث إنها:

- متفردة بحكم.
- ومن حيث زيادة حكم في بقية أخواتها من أفراد الباب على مـــا توجبـــه الواو، فصارت " بمنزلة المركب مع المفرد"[٣] .

وباستقراء نصوص ابن يعيش نجده يتابع ابن الحاجب علـــى القـــول بدلالة الواو "على الجمع المطلق؛ إلا أن دلالتها على الجمع أعم من دلالتـــها على العطف."[٤] ودليل ذلك عنده.

١-أن معنى الجمع ملازم لها في الاستعمال.

---

(١) شرح المفصل : ٩٠/٨

(٢) شرح المفصل:٩٠/٨

(٣) السابق والصفحة

(٤) السابق والصفحة

٢- في حين نراها وقد تعرّت عن معنى العطف ، على ما نرى في:

-واو المفعول معه، في قولنا مثلا : استوى الماء والخشبة . إنها في معنى الجمع ، لأنها نائبة عن "مع " الموضوعة لمعنى الاجتماع.

-وفى واو القسم معنى الجمع لنيابتها عن الباء التى هى أصل في القسم .ومعنى الباء الإلصاق . والشئ إذا لاصق الشئ فقد جاء معه.

-وواو الحال داخله في معنى الاجتماع، من قبل أن الحال مصاحبة لصاحبها.[1]

- وإذا كانت الواو أصلا في باب العطف على النحو الذى رأينا ، فإننى ألمح لها أصلاً آخر غير هذا الأصل ،قد أتى به ابن يعيش ، يتمثل في أصالتها للتثنية والجمع. يقول ابن يعيش وهو يدفع قول القائلين بأن الواو تفيد الترتيب:" والذى يؤيد ما قلنا، أن الواو في العطف نظير التثنية والجمع ، فإذا اختلفت الأسماء احتيج إلى الواو، وإذا اتفقت جرت على التثنية والجمع، تقول : جاءنى زيد وعمرو، لتعذر التثنية، فإذا اتفقت قلت: جاءنى الزيدان والعمران . والواو الأصل . وإنما زادوا على الاسم الأول زيادة تدل على التثنية ، وكان ذلك أوجز وأخصر من أن تذكر الأسمين ، وتعطف أحدهما على الآخر.. ومما يدل على ذلك أن الشاعر إذا اضطر عاود الأصل ،فقال:

كأنّ بين فكها والفكّ فأرَةَ مِسْكٍ ذبحت في سكّ[2]

* ويتابع ابن يعيش على اختصاص واو العطف بأنها تستعمل " فى مواضع لا يسوغ فيها الترتيب ،نحو قولك.

---

[1] انظر هذا في شرح المفصل: ٨/٩٠

[2] السابق والصفحة

اختصم زيد وعمرو ، وتقاتل بكرٌ وخالد..[١]

- ومن اختصاصها أن تُزاد . هكذا نقل ابن يعيش عن البغداديين. بقـــول:" أعلم أن البغداديين قد أجازوا في الواو أن تكون زائدة ، وأحتجوا بأنها قد جاءت في مواضع كذلك ،منها: قوله تعالى :(فلما أسلّما وتلـــه للجبيـــن ،وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا) . قالوا معنـــاه: نادينـــاه أن يـــا إبراهيم ؟ والواو زائدة ."[٢] .

ويتابع ابن هشام على أن الواو لمطلق الجمع [٣] ثم بعد ذلـــك يبيـــن للواو خصائص كثيرة لم نر بعضها عند سابقته، وهاك هى:

- تعطف الشئ على مصاحبة نحو : (فأنجيناه وأصحاب السفينة).
- وعلى سابقه نحو: (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم).
- وعلى لاحقة نحو (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك).
- اقترانها بـــ(إمّا) نحو: (إما شاكرا وإما كفورا).
- اقترانها بـــ(لا) إن سبقت بنفى ولم تقصد المعية نحو" مـــا قـــام زيـــد وعمرو"ولتفيد أن الفعل منفى عنها فى حالتى الاجتماع والافتراق.
- اقترانها بـــ" لكن" نحو(ولكن رسول الله).
- عطف المفرد السببى على الأجنبى عند الاحتياج إلى الربط كـــ(مـــررت برجل قائم زيد وأخوه" وقولك في باب الاشتغال"زيـــداً ضربـــتُ عمـــراً وأخاه"

---

(١) شرح المفصل : ٨/ ٩١

(٢) السابق ص:٩٣

(٣) أوضح المسالك:٣/٣٥٦

- عطف العقد على النيف ، نحو : أحد وعشرون.
- عطف الصفات المفرقة مع اجتماع منعوتها ، كقوله.

بكَيْتُ، وما بُكى رجُلٍ حزين؟ على ربْعَيْنِ مسلوبٍ وبالى

*عطف ما حقه التثنية أو الجمع، نحو قول الفرزدق :

إنّ الّرزية لا رزية مثْلُها فُقْدانُ مِثْلِ محمدٍ ومحمدِ

- عطف مالا يُستغنى عنه كاختصم زيدو عمرو... وهذا من أقوى الأدلـــة على عدم إفادتها الترتيب.
- عطف العام على الخاص، وبالعكس ، فـــالأول ،نحـــو: (رب اغفرلـــى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا.وللمؤمنين والمؤمنات) ، والثانى،نحـــو؛ (وإذْ أخذْنا من النَّبيين ميثاقَهم ومنْكَ ومن نوح)
- عطف عاملٍ حُذف وبقى معموله على عامل آخر مذكور يجمعها معنـــى واحد،كقوله:

إذا ما الغانياتُ برزْنَ يوماً وزجَّجْنَ الحواجبَ والعيونَا

* عطف المقدم على متبوعه للضرورة كقوله:

ألا يانخلة من ذَاتِ عرقٍ عليكِ ورحمةُ الله السلامُ

* عطف المخفوض على الجوار كقوله تعالى(وامسحو برُؤّسكم وأرْجُلكـــم) فيمن خفض الأرجل.(١)

تلك - إذا - خواطر النحاه حول واو العطف ،فما تلك خواطر المفسرين؟

---

(١) انظر في هذا المغنى:٢/٢٥٥-٢٥٧

في قول الله عز وجل(.. وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً)[١]

يقول أبو حيان :" وأما التقديم والتأخير في " وقولـــوا .. وادخلـــوا"فقـــال الزمخشرى: سواء قدموا الحط على دخول الباب وأخروها ، فهم جامعون في الإيجاد بينهما."[٢] ولم يعترض أبو حيان إلا على التركيب، فقال: " تركيـــب غيرعربى،وإصلاحه: سواء أقدموا ،أم أخروا.." [٣] . وعلى ذلك نفهم مـــن كلام الزمخشرى أن الجمع من معانى الواو التى أكدها النحاة. وهو ما ذهـب إليه أبو حيان نفسه، حين قال :" فحسنت الواو الجامعة للأمرين في الزمـــن الواحد ، وهو أحد محاملها. وبرغم بعض النحويين أنـــه أولـــى.."[٤] وعـــن شبيهه هذه الآية الكريمة في سورة البقرة الآية الثامنة والخمسين . يقول أبـــو حيان مشيراً إلى أية الأعراف... والقصة واحدة، فرتب الغفران هناك[٥] على قولهم "حطة" وعلى دخول الباب سجدا ؛ لما تصمنه الدخول من الســـجود . وفى تخالف هاتين الجملتين في التقديم والتأخير دليل على أن الواو لا تُرتب، وأنها لمطلق الجمع."[٦].

وفى قول الله عز وجل (– واسجدى واركعى مع الراكعين)

يرى أبو حيان أن الواو تختـــص بظـــاهر الـــهيئات ، تعطـــف ، ولا تُرتب[٧]. ولذلك يقول :" فلا يُسأل : لم قُدم السجود على الركوع إلا من جهة علم البيان. والجواب أن السجود لما كان الهيئة التى هى أقرب ما يكون العبد

---

[١] الأعراف (١٦١)

[٢] البحر: ٤٠٩/٤

[٣] البحر : ٤٠٩/٤

[٤] البحر :٤٠٨/٤

[٥] يقصد في الأعراف

[٦] البحر : ٢٢٤/١

[٧] انظر هذا المعنى في البحر:٤٥٦/٢

فيها إلى الله ، وإن كان متأخرا في الفعل على الركـــوع، فيكـــون -إذ ذاك - التقديم بالشرف."[١] فالظاهر أن عطف المتقدم علـــى المتـــأخر اختصـــاص بظاهر الهيئات ، لا يعنى الترتيب ، وإنما كان لمعنى من معانى البيان التـــى يذكرها البيانيون في هذا الشأن. وعلى ذلك يمكننا القول بأن عطف المتقـــدم على المتأخر حين يكون متصلا بظاهر الهيئات، تنصـــرف دلالـــة التقديـــم والتأخير إلى معنى من معانى البيان التى يؤكد عليها أرباب الصنعة في هـــذا الصدد وبذلك ينضاف هذا القول إلى ما قال به النحاة في مسألة اختصـــــاص واو العطف التى أشاروا إليها في مصنفاتهم، على النحو الذى قدمناه، ولم نر فيه شيئا عن مسألة التقديم والتأخير بين المتعاطفين حينما يكون الأمر متصلا بظاهر الهيئات.

وبعد ، فيحسن أن نقدم أهم المعايير التى جعلت من واو العطف أما فى الباب على النحو التالى:

أولا : الجمع والإشراك.

ثانيا : استعمالها فيما يستحيل فيه الترتيب.

ثالثا : اختصاصها فيما لا يحتمل الترتيب.

رابعا : انها نظير التثنية والجمع، من حيث إن الأسماء لو اختلفـــت كـــانت الواو، وإذا اتفقت جرت على التثنية والجمع..

خامسا: زيادتها.

---

(١) البحر : ٤٥٦/٢

الفصـــل السابـع

ياء في النداء

نص ابن يعيش على أن "يا" أصل حروف النداء[١]لأنه يراها دائـرة على جميع وجوهه - وإذا كان سيبويه لم يصرح بهذا ، فإننـا نسـتطيع أن نؤكده من خلال النصوص في مواضع كثيرة من كتابه. ولعل أهم ما يلفـت في هذه المواضع:

* الشيوع وكثرة الاستعمال ، فلا يكاد يخلو مثال من الأمثلة الجاريـة على الباب من هذا الحرف ، كأن تراه يقول : " اعلم أن النداء كل اسم مضاف فيه ، فهو نصب على إضمار الفعل المـتروك إظـهاره ٠٠ وزعم الخليل أنهم نصبوا المضاف ،نحو : يا عبد الله، ويا أخانـا ."[٢] ويقول في موضع :" والمفرد رفع ، وهو في موضع اسم منصـوب، وذلك قولك :" يازيد وياعمرو.."[٣] ويقول : " وتركوا التنويـن فـي المفرد كما تركوه في قبل"٠٠أرأيت قولهم : يـازيد الطويـل، عـلام نصبوا الطويل؟ قال: نصب لأنه صفة لمنصوب.."[٤] وفي موضع آخر يقول :" وبعضهم ينشد: يا نصر نصر نصرا، وتقول : يا زيد وعمرو، وليس إلا أنهما قد اشتركا في النداء في قوله: يا ، وكذلك يا زيد وعبد الله، ويا زيد لا عمرو، ويازبد وعمرو؛ لأن هذه الحروف تدخل الرفع في الآخر كما دخل في الأول ،وليس ما بعدها بصفة ، ولكنـه علـى يا٠٠"[٥]وغير ذلك مما لا نستطيع استقصاءه قد جاء على نحو ترى فيه

---

[١] شرح المفصل : ١١٨/٨.

[٢] الكتاب: ٣٠٣/١

[٣] الكتاب : ٣٠٣/١

[٤] الكتاب: ٣٠٣/١

[٥] الكتاب : ٣٠٥/١

"يا" أجرى على اللسان في الاستعمال اللغـــوى ، وهـــو مـــا يُعـــرف بالشيوع.

ولعلنى أسارع بعد هذا بالقول بأن مسألة الشيوع ربما تولد عنـــها بعض الاختصاص هنا مع "يا" كأن ترى استعمالها مع كل نداء ، فهى:

* مختصة بالتعجب والاستغاثة: يقول سيبويه : " هذا باب مـــا يكـــون النداء فيه مضافا إلى المنادى بحرف الإضافة . وذلك فـــي الاســـتغاثة والتعجب ، وذلك الحرف اللام المفتوحة . وذلك قول الشاعر :

يا لَبكرٍ أَنْشروا لى كُلَيْباً　　　يا لَبكْرٍ أين أين الفِرارُ

فاستغاث بهم لأن يُنشِروا كليباً وهذا منه وعيد وتهديُد . وأما قوله : يـا لَبكرٍ أين أين الفرارُ؟ فإنما استغاث بهم لهم، أى : لِم تفرون؟ استطالةً عليـــهم ووعيداً"[1] ثم يضيف سيبويه قائلا :" وقال أميه بن أبى عائذ الهذلى:

ألا يا تقومِ لطيف الخيالِ　　　أرقَّ من نازحٍ ذى دلال

وقال قيس بن ذريحٍ:

تكنَّفنى الوشاة فأزعجونى　　　فيالَلناس للواشى المُطاعِ

وقالوا : ياالله باللَناسِ، إذا كانت الاستغاثة به، فالواحد والجمع فيها سواء... وأما في التعجب فقوله [٢]:

لخُطّابُ ليلى يالَبُرْثُنَ منكُمُ　　　أَدَلَّ وأمضى من سُليكَ المقانبِ

وقالوا: يا لَلعجبِ، ويا لَلفَليقةِ، كأنهم رأوا أمراً عجباً فقالوا: يالَبُرْثنَ،

---

[1] الكتاب : ٣١٨/١-٣١٩

[2] يقصد فزار الأسدى

أي مثلكم دعى للعظائم." [1] وعلى منهج سيبويه في استقصاء القضايا للإيضاح والإفهام يقول: " وقالوا: يا للعجب ، ويا للماء، لما رأوا عجبا، أو رأوا ماء كثيرا" كأنه يقول : تعال ياعجب أو تعال يا ماء، فإنه من أيامك وزمانك. ومثل ذلك قولهم: يا للدوا هى أى تعالين، فإنه لا يستنكر لكن، لأنه من أحيا نكن. وكل هذا في معنى التعجب والاستغاثة وإلا لم يجر. ألا ترى أنك لو قلت: يا لزيد وأنت تحدثه ،لم يجر، ولم يلزم في هذا الباب ،إلا بالتنبيه لئلا تلتبس هذه اللام بلام التوكيد، كقولك: لعمرو خير منك. ولا يكون مكان "يا" سواها من حروف التنبيه،نحو : أى، وهيا، وأيا؛ لأنهم أرادوا أن يميزوا هذا من ذلك الباب الذى ليس فيه معنى استغاثة ولا تعجب"[2]

نحن- إذا- أمام نص يسجل لنا هذه الحقائق:

أ- بحرف النداء" يا" حسب يستغاث ويتعجب.

أ- النداء بـ"يا" يصل إلى المنادى بلام مفتوحة ،على نحو ما رأينا:

يا + " لـ" + بكر " منادى"

هذا النحو من النداء دلالته الاستغاثة والتعجب؛ وأداته "يا" ليس غير

حـ-إن النداء بـ"يا" في التعجب والاستغاثة لا يكون مخاطبة، يدلك على ذلك قول سيبويه:" ألا ترى أنك لو قلت : يا لزيد وأنت تحدثه لم يجز.".

د. - واللام المد حة هنا من قبيل التنبيه، حتى لا تلتبس بلام التوكيد في نحو: لزيد، خير منك .

---

(١) الكتاب: ٣١٩/١

(٢) الكتاب: ٣١٩/١-٣٢٠

* وهى تدخل في باب الندبة بشرط أن يُؤْمَن اللبس وإلا فـ "وا".يقول سيبويه: " والندبة يلزمها " وا" و"يا" ، لأنهم يَختلطون ويدعون مَنْ قد فات وبعُد عنهم . ومع ذلك فإن الندبة كأنهم يترنمون فيها، فمن ثَمَّ ألزموها المد، وألحقوا آخر الاسم المد مبالغة في الترنُّم."[1] فهذا اختصاص مشروط.

* ولكثرة استعمال"يا" وشيوعها في الاستعمال جوزوا حذفها من النكرة في الشعر .

يقول سيبويه:" وقد يجوز حذف "يا" من النكرة في الشعر.قال العجاج:

"جارِيَ لا تستنكرى عذيرى"

يريد: يا جارية."[2] فهذا الحذف ربما كان مرده الشيوع وكثرة الاستعمال؛ إذ يحذفون ما كان أجرى على لسانهم ، خاصة في النداء" لكثرته فى كلامهم "[3] ؛ من قبل أن " أول الكلام أبداً النداء، إلا أن تدعه استغناءً بإقبال المخاطب عليك ."[4].

تلك - إذاً - خصائص في "يا" النداء بنيناها على كثرة الاستعمال والشيوع، فلعلنا أصبنا فيما ذهبنا إليه . والآن نتابع خصائص "يا" عند سيبويه.

* من خصائص " يا" أن يأتى بعدها "أى" يتلوها " ها" ،على هذا النحو:

[يا أيّها] ← يا + أيّ + ها

---

[1] الكتاب: ٣٢٦/١

[2] الكتاب : ٣٢٥/١-٣٢٦

[3] الكتاب: ٣١٦/١

[4] الكتاب: ٣١٦/١

وجعلوا " ها " هذه تنبيها " بمنزلة "يا" وأكدوا بها التنبيه، حين جعلـوا " يا" مع "ها" ، فمن ثَمَّ لم يجزلهم أن يسكتوا على " أىّ" ولزمه التفسـير."[١]. معنى ذلك أن وجود "ها" في الصورة التى قدمناها ، لا ينفك عن " أى " لأنها مبهمة، ومن ثمّ كانت " ها " تفسيرا لها ، ثم هى قبل ذلك توكيد لـ "يا" فـي النداء ، مما جعل سيبويه يسميها تنبيهاً ، كما سمى حروف النداء كلها تنبيهاً. يدلك على ذلك قوله :"فكأنك كررت "يا" مرتين، إذا قلت: يا أيـها ، وصـار الاسم بينهما كما صار هو بين "ها" و"ذا"[٢].

ينضاف إلى ما تقدم أن " أىّ" لا بد لها من صفة تفسرها لما فيها مـن إبهام، فتكون هى مع صفتها بمنزلة الاسم الواحد. ومن خصائص صفتـها أن تكون بالألف واللام ، وأن تكون مفرداً مرفوعاً، يؤكد على ذلك قول سيبويه: " هذا باب لا يكون الوصف المفرد فيه إلا رفعا ، ولا يقع في موقعـه غـير المفرد. وذلك قولك: يا أيها الرجل ، ويا أيها الرجلان، ويا أيـها المرأتـان، فأى ههنا - فيما زعم الخليل- كقولك : يا هذا ، والرجل وصف لـه ، كمـا يكون وصفا لهذا." [٣]. ثم يفسر سيبويه سبب الرفع في الصفة بقوله :" وإنمـا صار صفة لا يكون فيه إلا الرفع ؛ لأنك لا تستطيع أن تقول : يا أىُّ ، ولا يا أيُّها وتسكت؛ لأنه مبهم يلزمه التفسير ، فصار هو والرجل بمنزله اسم واحـد ... وأعلم أن الأسماء المبهمة التى توصف بالأسماء التى فيها الألف واللام تُنزّل منزلة " أىّ " ، وهى : هذا، وهؤلاء، وأولئك، وما أشبهها وتوصـف

---

[١] الكتاب:٣١٧/١

[٢] الكتاب ٣١٠/١

[٣] الكتاب :٣٠٦/١

بالأسماء، وذلك قولك : يا هذا الرجل، ويا هذان الرجلان، صار المبهم وما بعده بمنزلة اسم واحد "[١] ثم يؤكد سيبويه هذه الحقيقة بقوله ": والألف واللام والمبهم يصيران بمنزلة اسم واحد ، يدلك على ذلك أن " أى" لا يجوز لك فيها أن تقول : يا أيُّها ذا الجُمّة. فالأسماء المبهمة توصف بالألف واللام ليس إلا ، ويُفسَّر بها، ولا توصف بما يوصف به غير المبهمة، ولا تُفسَّر بما تُفسَّربه غيرها إلا عطفاً . ومثل ذلك قول لشاعر (وهو ابن لَوْزان السّدوسّى):

ياصاحِ ياذا الضامِرُ العَنْسِ والرَّحْلِ ذى الأنْسَاعِ والحِلْسِ[٢]

وعلى ذلك يمكن تصور ما يلى

أ- "يا" لا تختص بمجئ "أى" بعدها حسب، وإنما بما نُزّل منزلتها من الإبهام،كما رأينا من النصوص السابقة.

ب- إن الإبهام في "أى" تفسيرُ لوجه الرفع فيها، لأنه مقيس على قولنا : يا رجلُ ، فلا يكون " رجلُ" إلا مرفوعاً. وربما أكّد هذا ما ذهب إليه سيبويه من أنّ الألف واللام والمبهم بمنزله إسم واحد.

* كما تختص " يا" بالدخول على لفظ الجلالة ، وهو اسم فيه الألف واللام، ولا يُنادى اسم فيه الألف واللام إلا أن يكون من قبيل الاختصاص ، كما في لفظ الجلالة . يقول سيبويه: واعلم أنه لا يجوز لك أن تنادى اسما فيه الألف واللام البتة، إلا أنهم قد قالوا : يا الله اغفر لنا، وذلك من قبل أنه اسم يلزمه الألف واللام ، لا يفارقانه، وكثر في كلامهم ، فصار كأن الألف واللام فيه بمنزلة الألف واللام التى من نفس

---

[١] الكتاب : ٣٠٦/١

[٢] السابق والصفحة.

الكلمة... وكأن الاسم - والله أعلم- إله ،فلما أُدخل فيــه الألـف والــلام حذفوا الألف ، وصارت الألف واللام خلفا منها، فهذا أيضاً مما يقويه أن يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف." [1]. فالألف والــلام فــي لفــظ الجلالة تعالى ذكره - بمنزلة ما لا ينفصل من الكلمة .فهذا اختصــــاص فى لفظ الجلالة ، واختصاص في " يا " من قبل أنّها منوطـــة بـــالدخول على هذا اللفظ الكريم.

* ومن خصائص " يا " أن ترى الميم نائية عنها فـــي " اللـــهم" . يقـــول سيبويه:" وقال الخليل : اللهم نداء والميم ههنا بدل من " يا " ، فهى ههنا فيما زعم الخليل آخر الكلمة بمنزلة " يا " في أولها ، إلا أن الميم هـــهنا في الكلمة ،كما أن نون المسلمين في الكلمة بنيت عليها ."[2] علـــــى أن وجود الميم يمنع الاسم من الوصف؛ إذ يكون الاسم مع الميم" بمنزلـــــة صوت ، كقولك : ياهناه" ، فقد صرفوا هذا الاسم على وجوه لكثرته فـي كلامهم ، ولأن له حالاً ليست لغيره."[3] هذا النص يمكن أن نستنتج منــه ما يلى:

- "اللهم" يقابل : " الله ".

الميم في نهاية لفظ الجلالة لها دلالة " يا " في أوله ،لذلك تُحذف " يـــا " فـــي وجود الميم.

- إن وجود الميم مع الاسم "اللهم " ما نع من وصف الاســـم ، لأنـــه أى الميم +الاسم- بمثابة صوت له دلالته المعروفة ومن ثم لا يكـــون فيـــه إبهام على نحو ما رأيناه في " أى " ،حين قالوا: يا أيها.

---

[1] الكتاب: ٣٠٩/١

[2] الكتاب : ٣١٠/١ .

[3] السابق والصفحة

* وينبنى على الاختصاص المتقدم اختصاص " يا " بالحذف في وجود الميم . يقول سيبويه :" .. وأما قوله عز وجل(اللَّهُمَّ فَاطِرَ السماواتِ والأرْض) فعلى " يا " فقد صرفوا هذا الاسم على وجوه لكثرته في كلامهم".[١].

* كما تختص " يا " بالتقدير إذا رأيت حرف النداء محذوفا ، يدلك على ذلك قول سيبويه:" وإن شئت حذفتهن كلهن استغناء، كقولك: حار بن كعب،وذلك أنه جعلهم بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطب . ولا يحسن أن تقول : هذا ، ولا رجلُ وأنت تريد : يا هذا ، ويا رجلُ . ولا تقول ذلك في المبهم .. "[٢] فدليل الحذف تصور المثول والحضور على ألا يكون هناك إبهام فيمن تنادى.

والمبرد متابع على ما قال به سيبويه في مسألة الاختصاص في " يا " كأن ترى:

- أمثلة متعددة لشيوع " يا " في النداء" ، وذلك من نحو قوله:" وذلك قولك : يا عبد الله ؛ لأن "يا " بدل من قولك: أدعو عبد الله.. [٣] وقوله:" وكذلك كل ما كان نكره؛ نحو : يا رجلاً صالحاً، ويا قوماً منطلقين."[٤] .

ويقول في موضع آخر:" ألا ترى أنك تقول- إذا أردت المعرفة : يا رجلُ أقبل فإنما تقديره : يا أيها الرجل أقبل.. [٥]

---

(١) الكتاب :٣١٠/١.
(٢) الكتاب : ٣٢٥/١
(٣) المقتضب :٢٠٢/٤
(٤) السابق والصفحة
(٥) المقتضب: ٢٠٠/٤

* و " يا " مختصة بالاستغاثة والتعجب عند المبرد أيضا ، حيث يقــول : " فإن دعوت شيئا على جهة الاستغاثة فاللام معه مفتوحة . نقول : يا لَلنـــاس، ويا لله٠٠ فُتحت على الأصل ليُفرق بينها وبين هذه التى وصفنا.." [(١)]

* وعند المبرد تختص " يا " بالدخول على " أى " فتكون مع صفتها " بمنزلة شئ واحد ألا ترى أنك لا تقول : يا أى وتسكت ؛ كما تقول : يا هذا وتقـف؛ لأن هذا مجراها في الكلام أن تتكلم بها وحدها و " أى" ليس كذلك ." [(٢)].

* وتدخل " يا " في الندبة أيضا . يقول المبرد : " والوجه الآخَر أن تجـــرى مجرى النداء البته، وعلامته " يا " و "وا " ولا يجوز أن تحذف منها العلامـــة ؛ لأن الندبة لإظهار التفجع ومد الصوت "[(٣)].

* كما تختص " يا" بالتقدير إذا حُذف حرف النداء. يقول المبرد : " تقـــول: زيد أقبل ؛ وتقول: من لا يزال محسناً، تعال ، وغلام زيدٍ، هَلُمَّ.." [(٤)]. فيكون حرف النداء المحذوف " يا " بوصفها أُماً للباب ، ولكونه أعم في الاســتعمال على النحو الذى قُدّم . ولذلك يقول المبرد:" لأن "يا " بدل من قولك " أدعـــو عبد الله".

* وكذلك يتابع المبرد على أن " أيا " تكون تاليه لــ"يـــا " ، وتكــون " أىّ " متصلة بـــ"ها " التنبيه . يقول المبرد : تقول : يا أيها الرجل ، ويا أيها الغلام ، ويا أيهذا؛ لأن " أيا " مبهم ، والمبهمة إنما تُنعتَ بما كان فيه الألف واللام،

---

(١) المقتضب: ٢٦٦/٤

(٢) المقتضب :٢٦٦/٤

(٣) المقتضب : ٢٠٥/٤

(٤) المقتضب: ٢٥٨/٤.

أو بما كان مبهما مثلها٠٠ فهذا تقدير يا أيها إلا أن يضطر شاعر ٠٠ أن يحذف منها علامة النداء٠٠"[١] . فهذا مذهب سيبويه ، كما قدمناه.

* كما يتابع المبرد على أن الميم في " اللهم" " عوض عن " يا " التى للتنبيه ، والهاء مضمومة لأنه نداء"[٢].

ومن خصائص " يا " في النداء عند الاستراباذى أن تراها في:

* الاستغاثة والتعجب على نحو ما رأينا عند سيبويه والمبرد. يقول الاستراباذى :" وكذا المستغاث منادى ، دخله معنى الاستغاثة ، وكذا المتعجب منه منادى دخله معنى التعجب ،فمعنى يا للماء وياللدواهى: احضرا حتى يُتعجب منكما."[٣] .

* ونُرى " يا " عوضا عن الفعل المحذوف الذى هو في معنى النداء يقول الاستراباذى :" ٠٠ إذ لا نداء بدون المنادى . وما أورد ههنا إلزاماً من أن الفعل لو كان مقدراً، أو كان " يا " عوضا منه ، لكان جمله خبرية ، غير لازم ؛ لأن الفعل مقصود به الإنشاء٠٠"[٤] فهو هنا على ما قدم لنا سيبويه والمبرد.

* إن مسأله الشيوع ظاهرة في كتب النجاة جميعا، ومن ثم فهى هنا وهناك عند ابن الحاجب والاستراباذى .الذى يقول تمثيلاً لا حصراً- :" فيازيدُ جملة ، وليس المنادى أحد جزئى الجملة٠٠ "[٥] ويقول :" وقال الفراء: أصل يا

---

[١] المقتضب: ٤/٢٥٨-٢٥٩

[٢] المقتضب : ٤/٢٣٩

[٣] الكافية : ١/١٣١

[٤] الكافيه: [illegible]

[٥] الكافيه : [illegible]

زيدُ ، يا زيدا، لكون المنادى بين الصوتين، ثم اكتفى بـ"يـــا"٠٠ "[١] وفـــي موضع يقول عن يونس:" يا قاض، لأنه لم يعهد لام المنقــوص ثابتــا مـــع السكون٠٠"[٢] ، يريد أن يونس يحذف "الياء" في المنقـــوص ثـــم يعـــوض تنويناً٠٠"[٣] وغير ذلك كثير.

* وتقترن٠٠ " يا " بالاستغاثة والتعجب . يقول ابن الحاجب: " يخفض بـــلام الاستغاثة ، نحو: يا لزيدٍ، ويُفتح لإلحاق ألفـــها ، ولا " لام " ، نحـــو : يـــا زيداه."[٤]. ثم يُعقب الاستراباذى على ذلك بقوله:" هذه اللام المفتوحة تدخـــل المنادى ، إذا استغيث به ، نحو : يا لله، أو تعجب منه ، نحو : يا للماء. ويـــا للدواهى، وهى لام التخصيص."[٥] وهنا يلفت ابن الحاجب إلى دقة الاختيار ، حين ذكر التناسب بين :

أ- حرف النداء " يا ".

ب- ومعنى الاستغاثة والتعجب.

ج- ومعنى اللام حين تكون تخصيصا في هذا المقام.

يقول في معرض بيان الانسجام بين هذه الثلاثة : وإنما اختيرت من بيـــن الحروف-يقصد اللام- لمناسبة معناها لمعناهما ؛[٦] إذ المستغاث مخصـــوص من بين أمثاله بالدعاء، وكذا المتعجب منه مخصـــــوص مـــن بيـــن أمثالـــه بالاستحضار لغرابته، فاللام مُعدية لـــ(أدعو) ، والمقدر عنـــد ســـيبويه ، أو

---

[١] الكافية : ١٣٢/١

[٢] الكافية : ١٣٣/١

[٣] الكافيه: ١٣٣/١

[٤] الكافيه: ٣٣/١

[٥] الكافيه: ١٣٣/١

[٦] أى الاستغاثة والتعجب

لحرف النداء القائم مقامة عند المبرد إلى المفعـــول."[١] هنـــا أســـجل هـــذه الخواطر حول هذا النص الذى أراه مفسرا في جلاء تلازم الثلاثة على النحو الذى قدمنا:

أ- إن هناك معنى يمسك بين الثلاثة.

ب- الخصوصية هى الملح المميز لهذا المعنـــى ، علـــى النحـــو التالى.

* خصوصية تتعلق بالمستغاث بوصفة معينا من بين أمثاله.
* خصوصية المتعجب منه المتعلقة بالاستحضار للغرابة.
* خصوصية اللام المعنوية ، فضلا عن كونها معدية للدعاء، يعنـــى للفعل (أدعو).

ومن ثم كان ذلك الانسجاب الذى ذكرنا ، والذى غايته الدعاء بالحرف " يـا " أو ما يشابهه، على نحو ما قدم النحاة ، ذلك إن كان النداء موضوع الاستغاثة أو التعجب.

على أن سؤالا قد يفرض نفسه، لماذا اللام معدية ، في حين " أدعو " متعد بنفسه؟ يجيب عن ذلك ابن الحاجب بقوله: " لضعفه بالإضمار يقصـــد ضعف " أدعو" - أو لضعف النائب منابه، ألا ترى أنك تقول : ضربى لزيـــد حسن ، وأنا ضارب لزيد ، ولا يجوز ضربت لزيد.."[٢]. فهذا تفسير وجـــود اللام معدية للفعل " أدعو" أو لما يقوم مقامه ، كما أخبر النحاة بذلك .

---

[١] الكافيه: ١٣٣/١

[٢] الكافيه: ١٣٣/١

وتفسير فتح لام الجر في المستغاث : من قبل " اجتمـــاع شـــيئين : أحدهما : الفرق بين المستغاث والمستغاث له؛ وذلك لأنه قد يلى" يا " ما هـو مستغاث له بكسر اللام والمنادى محذوف، نحو : يا للمظلوم، ويا للضعيـف، أى : يا قوم، الثانى : وقوع المستغاث. موقع الضمير الذى تُفتح لام الجـــر معه.. "[١]. فاللام بين الفتح والكسر هنا ، مُحدِّدة لما هو مستغاث، ومسـتغاث له.

ويعود ابن الحاجب ليؤكد أن " يا " تختص بالاستغاثة والتعجـب ، فيقول:" ولا يستعمل من حروف النداء في الاســتغاثة والتعجــب إلا " يـــا " وحدها ، لكونها أشهر في النداء ، فكانت أولى بأن يُتوسع فيها باستعمالها في المنادى المستغاث به ، والمتعجب منه ."[٢]

* ويتابع ابن الحاجب على دخول " يا " في الندبة أيضا ، لتشارك " وا" فـــي ذلك . فكل من " يا " و" الألف" يعاقب صاحبه في الاستغاثة والتعجــب ، ولا يجتمعان. وحكم هذه الزيادة كحكم زيادة المندوب، فيكون مرة " وا " ، ومـرة " يا " ، ومرة" ألفا " كزيادة المندوب .."[٣].

* وعند ابن الحاجب تختص " يا " بالدخول على " أى " ، إذ يقـــول : " ولا يجوز يا أيها الرجل وعبد الله؛ لأن المعطوف في حكم المعطـــوف عليـــه ، فيجب - إذا- أن يكون عبد الله صفة " أى " ، ولا يجوز لأنه لا يوصــف إلا بذى اللام.."[٤] وعلى ذلك يتحقق التركيب الذى رأيناه عند سيبويه :

يا + أىّ + ها

---

[١] الكافية : ١٣٣/١

[٢] الكافية : ١٣٤/١

[٣] الكافيه : ١٣٤/١

[٤] الكافيه: ١٤٤/١

ثم إن صفة " أي " لا بد أن تكون بالألف واللام.

* كما يوافق ابن الحاجب والاستراباذي على اختصاص " يا " بالدخول على لفظ الجلالة .[١].

وفي المفصل يتابع الزمخشري على اختصاص " يا " بالدخول على لفظ الجلالة ، حيث يقول: " ولا ينادى ما فيه الألف واللام ، إلا الله وحده؛ لأنهما لا تفارقانه، كما لا تفارقان النجم. مع أنهما خلف عن همزة إله.."[٢]

* وعند الزمخشري تدخل " يا " في المندوب [٣]، وفي الاستغاثة والتعجب"[٤].

* وتختص بالدخول على " أيّ " ، على النحو الذي رأينا عند النحاة. بقول الزمخشري: " والمنادى المبهم شيئان: أي ، واسم الإشارة . فأي يوصف بشيئين: بما فيه الألف واللام مقحمة بينهما كلمة التنبيه، واسم الإشارة، كقولك : يا أيها الرجل، ويا أيهذا.

قال ذو الرُّمة:

ألا أيُّهذا الباخع الوجدَ نفسهَ لشئ نَحتَه عن يَدَيْهِ المقادرُ

واسم الإشارة لا يوصف إلا بما فيه الألف واللام .."[٥]

---

[١] انظر الكافيه : ١/١٤٥-١٤٦

[٢] المفصل:ص:٤١

[٣] انظر المفصل ص:٤٤

[٤] المفصل ص:٣٧

[٥] المفصل: ص: ٣٠- ٤

* ويتابع الزمخشرى على شيوع " يا " في الاستعمال، وعلى أنها بدل من الفعل المحذوف الذى هو في تقدير: أعنى، أو أريد. وذلك حين يقول:".. لأنك إذا قلت : با عبد الله ،فكأنك قلت : يا أريد، أو أعنى عبد الله، ولكنه حذف لكثرة الاستعمال، وصار"يا " بدلا منه.."[١]

وابن يعيش يتابع على أن " يا " بدل من الفعل المحذوف الدال على النداء[٢] كما نرى عنده الشيوع وكثرة الاستعمال من أهم الخصائص التى يمكن أن تستنتجها من نصوص ابن يعيش. إنه يقول – تمثيلا " لا حصراً: " أصل النداء تنبيه المدعو. ألا ترى أنك إذا قلت : يا فلان ، فقيل لك : ماذا صنعت به ، فقلت : دعوته أو ناديته.."[٣] ويقول أيضا في معرض كلامه عن تعديه حروف النداء للمنادى بنفسها أو بحرف جر: " ولذلك تصل تارة بأنفسها ، وتارة بحرف الجر ، نحو قولك : يا زيد ،ويا لزيد ، يا بكر و يا لبكر.."[٤].

ويمسك ابن هشام بخصائص " يا" في النداء في صفحات قليلة تعرض ملامح الاختصاص في إيجاز يجلو غوامض ما قد يعد إبهاماً عند غيره. وخلاصة ذلك عنده أنها تتعين في :

أ- كل نداء : وتتعين في نداء اسم الله تعالى.

ب- وفي باب الاستغاثة ، نحو " يا لله للمسلمين".

ج- وتتعين هى أو " وا" في باب الندبة إذا أُمن اللبس، كقوله:

---

[١] المفصل:ص-٣٥

[٢] انظر شرح المفصل: ١١٨/٨

[٣] شرح المفصل : ١١٨/٨

[٤] شرح المفصل:١٢٠/٨

* وقُمتَ فيه بأمرِ اللهِ ياعُمرا *[١]

ثم يضيف قوله " ولهذا لا يُقدر عند الحذف ســواها ٠٠٠ولا ينــادى "أيــها" و"أيتها "؛ إلا بها"[٢].

ومن خصائصها عنده أيضا:

مجئ الفعل بعدها كما في قوله تعالى (ألا يا اسجدوا)[٣]

وكما في قول الشاعر:

ألا يا اسقِيانى بعد غارة سِنْجال   وقبلَ مَنَايا عاديات وأوْجَالِ

وكذلك مجئ ، الحرف بعدها ،كما في قوله تعالى(ياليتنى كُنتُ معهم فــأفُوزَ)" يارب كاسيه في الدينا عارية يوم القيامة.

ويجئ بعدها الجملة الأسمية ، كقول القائل:

يا لعنة الله والأقوام كلهمُ   والصالحين على سَمِعانَ من جار[٤]

على أن ابن هشام يفسر هذا بأن المنادى محذوف ، و" يا" للنداء، وروى أن " يا " ربما كانت " لمجرد التنبيه ، لئلا يلزم الإجحاف بحذف الجملة كلها." [٥]. وينقل ابن هشام رأى ابن مالك" إن وليها دعاء كهذا البيت أو أمر نحــو (ألا يا اسْجُدُوا) فهى للنداء، لكثرة وقوع النداء قبلها ،نحو (يا آدمُ اسْكُن) (يانوح اهبط)، ونحو : (يا مالكُ ليقص علينا ربُّك) وإلا فهى للتنبيه." [٦].

---

[١] انظر أوضح المسالك:٤١٩

[٢] المغنى: ٣٧٣/٢

[٣] انظر المعنى:٣٧٣/٢

[٤] انظر هذا في المغنى:٣٧٣/٢

[٥] انظر ابن هشام في المعنى: ٣٧٤/٢

[٦] المغنى: ٣١٤/٢

هذا ما كان لنا من نظر ونحن نطالع خصائص " يا" عند ابن هشام ، ينضاف إلى نظر سابق في هذه الخصائص عند سابقيه من النحاة، الذين تابعهم عليها، وإن اختلفت الطريقة بين الإيجاز وطول العرض، أو بين الوضوح والإغراق في الإبهام عند بعضهم.

" يا " في نصوص المفسرين:

في قوله تعالى (يوسف أعرض عن هذا)[١]

يقول أبو حيان :" وفى ندائه باسمه تقريب له وتلطيف .."[٢] يتفق النحاة على أن حرف النداء إذا حذف فإن الذى يُقدر عندهم " يا " . فعلى ذلـــك يكـــون يوسف منادى لــ" يا" محذوفة ، وتكون " يا" دلالة على التقريب ، مما يؤيـــد نظر النحاة في أنها تدخل على كل نداء.

وفي قوله تعالى (أن أدُّوا إليَّ عبادَ الله..)[٣].

يذكر أبو حيان عن ابن عباس قوله : " أن أدوا إلى الطاعة يا عبـــاد الله، أى اتبعونى على ما أدعوكم إليه من الإيمان ."[٤] ثم يقول :" فعلـــى قـــول ابـــن عباس ، عباد الله منادى ، ومفعول أدوا محذوف.."[٥]. ما ذكره أبـــو حيـــان يمكن أن نخلص منه بما يأتى:

أولا : حرف النداء محذوف في الآية الكريمة.

ثانيا : لما قدر الحرف المحذوف كان" يا" وهو ما قال به النحاة.

---

[١] يوسف(٢٩)

[٢] البحر المحيط : ٢٩٨/٥

[٣] الدخان[١٨]

[٤] البحر المحيط: ٣٥/٨

[٥] البحر : ٣٥/٥

وقوله تعالى : (**يا أيها الناس اعبدوا ربكم**)[١].

يقول أبوحيان : وأى في أيها منادى٠٠٠ وهى وصلة لنداء ما فيـــه الألـــف واللام: لمَا لم يُمكن أن ينادى تُوصل بنداء"أى" إلى ندائه ، وهى في موضـــع نصب، وهاء التنبيه كأنها عوض مما منعت من الإضافة .."[٢] فـــهذا قـــول النحاة، كما رأينا فيما مضى ، حيث رأينا الصورة التى قدمنا عنـــد ســـيبويه وغيره:

يا + أى + ها + اسم فيه الألف واللام

فأى موصلة لما كان فيه الألف واللام ،حيث إن ذا الألف واللام لا ينادى كما قرر النحاة.

بيد أن " الهاء" المتصلة بـــ" أى " عند أبى حيان ، ليست توكيدا كمـــا قـــال سيبويه، إنما هى عوض عن الإضافة.

وفي قوله تعالى (قل اللَّهم مالِك المُلْك).[آل عمران ٢٦]

يقول أبو حيان :" أجمعوا على أنها- أى " اللهم" - مضمومة الـــهاء،مشـــددة الميم المفتوحة ، وأنها منادى."[٣] . وينقل أبو حيـــان :" قـــال أبـــو رجـــاء العطاردى : هذه الميم تجمع سبعين اسما من أسمائه. وقال النضر بن شميل: من قال اللهم ، فقد دعا الله بجميع أسمائه كلها . وقال الحسن: اللهم مجمـــع الدعاء . ومعنى قول النضر أن اللهم هو الله، زيدت فيه الميم ، فهو الاســـم

---

(١) البقرة : ٢١

(٢) البحر :٩٤/١

(٣) البحر: ٤١٨/٢

العلم المتضمن لجميع أوصاف الذات ، لأنك إذا قلت : جاء زيد ، فقد ذكرت الاسم الخاص، فهو متضمن جميع أوصافه التى هى فيه..[١]"

بعد هذه النصوص حول هذه الآية الكريمة ، يمكن أن نسجل ما يأتي:

أ- "اللهم" منادى في غياب حرف النداء " يا ".

ب- الميم ليست بديلا عن " يا " ، وإنما دلالتها جميع أسماء الله سبحانه.

ج- إن لفظ الجلالة + الميم ، علم يتضمن أوصاف الذات الإلهية.

ويرى الفراء أن " اللهم" " لا ينادى ب" يا " ؛ كما نقول : يازيدُ، ويا عبد الله، فجعلت الميم فيها خلفا من " يا" "[٢] فهو بذلك متابع لأقوال النحاة.[٣]

ويضيف الفراء كلاما ربما أوقفنا على ما قد يوحى باختصاص في لفظ الجلالة " اللهم" ؛ إذ يقول:" ولم نجد العرب زادت مثل هذه الميم في نواقص الأسماء إلا مخففة؛ مثل الفم وابنم ..[٤] فهذا اختصاص في اللفظ الكريم " اللهم" ، ذلك أنك ترى الميم مشددة، وهى عوض عن محذوف، في حين تراها مخففة في غير هذا اللفظ الكريم ،كما نرى من الأمثلة التى أوردها . على أنه يعود فيذكر أنَ تخفيف الميم في " اللهم" " ورد في بعض اللغات وفسر هذا بكثرة استعمال اللفظ : فقال :" وقد كثرت " اللهم" في الكلام حتى خففت ميمها في بعض اللغات ، أنشدنى بعضهم:

---

[١] البحر: ٤١٩/٢

[٢] معاني القرآن:٢٠٣/١

[٣] انظر مثلا كتاب سيبويه :٣١٠/١

[٤] معاني القرآن: ٢٠٣/١

كحلفة من أبى رياح ...يسمعها اللهم الكبار[١]

مما قدمناه من نصوص بعض المفسرون من نصوص ، يمكن الوقــوف على النتائج الآتية:

١- لم يختلف المفسرون مع ما أوردة النحاة في حديثهم عن اختصاص" يا " في النداء.

٢- ثم زادوا على ما لم يختلفوا عليه:

* أن الميم في" اللهم" ليست بدلا عن "يا" ، إنما دلالتها جميع أسماء الله سبحانة.
* وأنه يمكن وصف اللفظ الكريم" الله" مضافا إليه الميـم بأنـه علـم متضمن لنعوت الذات الإلهية

بعد ذلك التطواف مع أقوال النحاة والمفسرين حول خصائص " يـــا " يمكن أن نجمل معايير الأم عندهم على النحو التالى:

* كثرة الشيوع والاستعمال.
* اختصاصها بالتعجب والاستغاثة ، وحينئذ تأخذ هذا الشكل التركيبى:
يا + لـــ" مفتوحة " + المنادى في الاستغاثة أو التعجب.

ويلحق بهذا الاختصاص في الاستغاثة والتعجــب ، أنــه لايكــون إلا مشافهة.

* يمكن دخولها في باب الندبة.
* حذفها من النكرة في الشعر.
* يأتى بعدها " أى " على هذا النحو:

---

(١) معاني القرآن: ٢٠٤/١

" يا " + أى + ها " لتأكيد التنبيه "

ويكون لـ" أى" حينئذ صفة ذات ألف ولام

* وتختص " يا" بالدخول على لفظ الجلالة على نحو خاص ، بحيث يكون " اللهم " نيابة عن " يا الله "، فلا يُجمع بين الميم و" يا" إلا في شذوذ.

* إن وجود الميم مع اللفظ الكريم " اللهم" مانع من الوصف، إذ تكون للفظ، حينئذ دلالات خاصة .

* تقدر " يا" عند الحذف : ولا يُقدر غيرها.

* إن الميم في " اللهم" ليست بديلة عن " يا " ، إنما دلالتها جميع أسماء الله سبحانه.

* اللهم علم جامع لصفاته سبحانه وتعالى.

تلك - إذاً- خلاصة ما قال به النحاة والمفسرون في حديثهم عن اختصاصات " يا " في النداء، لعلها أوفت على الغاية المنشودة ، أو لعلها مبلغ نفس غدرها.

الفصـــل الثامن

كـــان

لم ينص سيبويه صراحة على أنّ "كان" أم الباب ، ولكننا نلمح ما قـــد يُعدّ تصريحاً ونحن نطالع كلامه الذى نعرضه من خلال نصوصه.

إنه يقول مثلا : " هذا باب الفعل الذى يتعدى اسم الفـــاعل إلـــى اســـم المفعول، واسم الفاعل والمفعول فيه لشئ واحد.. وذلك قولك: كان ويكـــون، وصار، ومادام.. وما كان نحوهن.."[١]

ويقول أيضا :" وإن شئت قلت : كـــان أخـــاك عبـــد الله، فقدمـــت وأخرت.."[٢] ويقول :" كناهم، كما نقول : ضربناهم، وتقول : إذا لم نكنـــهم فمن ذا يكونهم.."[٣] .ثم يذكر قول أبى الأسود الدؤلى:

فإنّ لا يكُنْها أو نكُنْهُ فإنه أخوها غَذَتْهُ أُمه بلِبانها

ويعلق الشنتمرى على هذا البيت بقوله :"أراد سيبويه أنها لتصرفها تجـــرى مجرى الأفعال الحقيقية في عملها، فيتصل بها ضمير خبرها اتصال ضمـــير المفعول بالفعل الحقيقى في نحو: ضربتُه، وضَربنى، وما أشبهه"[٤].

ألا ترى أنه يسوق أمثلته بذِكره" كان" في الأمثلة التى قدمنـــا، وفـــي غيرها ، حين يعمد لكل حديث يتصل باستعمالات الباب؟ إنك تـــراه مثـــلا - يتكلم عن:

١- النكرة والمعرفة بعد كان : فيقول:" واعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة ،فالذى تشغل به كان المعرفة ؛ لأنه حد الكلام ."[٥] إنـــه هنـــا يتكلم عن الباب كله، فيذكر"كان". أليس هذا في معنى الام؟ إنه يُجـــرى

---

[١] الكتاب : ٢١/١

[٢] السابق.

[٣] السابق

[٤] السابق.

[٥] الكتاب: ٢٢/١

حديث الباب على كان- شيوعاً فيه- ينضاف إلى ذلك ما لها من اختصاصات أخرى سنعرض لها.

٢- وعن الإخبار بنكرة عن نكرة، يقول :" وذلك قولك: ماكان أحدٌ مثلَك.."[١]

٣- أو عن معنى التمام في كان حين يقول:" وقد يكون لـ"كان" موضع آخر ، تقتصر على الفاعل فيه نقول :كان عبد الله، أى خُلق.. وقد كان الأمر ،أى وقع..."[٢].

وهكذا نجد كل حديث يتصل بالباب يجرى على "كان". مما يؤكد لها اختصاصات تتفرد بها، نعرضها على النحو التالى:

- لعل من أهم ما يميز كان من اختصاصات كثرة الاستعمال والشيوع. فالنصوص السابقة وغيرها صائرة إلى هذا المعنى، يؤكد ذلك كلام الشنتمرى، حين وصفها بأنها تجرى مجرى الأفعال الحقيقية لتصرفها واتصالها بالضمائر.
- ومن خصائصها أن تكون أصلا للقياس، حين جعلها سيبويه بمنزلة جاء وعسى ،يقول سيبويه: " ومثل قولهم: من كان أخاك قول العرب : ما جاءت حاجتك - كما قال بعض العرب: من كانت أمك؟ حيث أوقع مَنْ على مؤنث. وإنما صُيِّرجاء بمنزلة كان في هذا الحرف وحده ، لأنه بمنزلة المثل ، كما جعلوا عسى بمنزلة كان في قولهم: عسى الغُوَيْرُ أبْؤُساً."[٣] فهى بمنزلة" جاء" و"عسى" إذا كان الكلام مثلاً.

---

[١] الكتاب: ٢٦/١

[٢] الكتاب: ٢١/١

[٣] الكتاب: ٢٤/١

- وتُحمل "أنْ" المصدرية على كان– وإن شاركتها ليس فى ذلك– ففى كلام سيبويه عن قوله تعالى(**وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلا أَنْ قَالُوا**) [الاعـــراف ٨٢] قوله:" فأن محمولة على كان، كأنه قال فما كان جواب قومه إلا قولُ كذا وكذا. وإن شئت رفعت الجواب فكانت أن منصوبة.."[١] فعلى هــــذا يمكن أن نتصور:[كان +اسم + "أنْ+ فعل] على أنه تركيب يكون فيـه ما بعد كان على النحو التالى:

أ- الاسم بعد كان صالح للاخبار عنها.

ب- أنْ ومعمولها مصدر هو اسم لها.

ج- أو ينعكس الأمر فيكون خبرها.

*وحذف النون في يكون من خصائصها فقــد كتــب ســيبويه تحــت عنوان:" هذا باب ما يكون في اللفظ من الأعراض" يقـــول :" اعلــم أنـــهم يحذفون الكلم، وإن كان أصله في الكلام غير ذلك ... فما حُذف وأصله فـــي الكلام غير ذلك: لم يَكُ، ولا أَدْرِ، وأشباه ذلك."[٢].

- وزيادة كان مما تتفرد به في الباب كلـــه، نقــل ســيبويه عــن الخليــل فقال:"وقال الخليل: إن من أفضلهم كان زيداً على إلغاء كان، وشبهه بقول الشاعر:

فكيف إذا رأيتَ ديارَ قومٍ وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ[٣]

ويتابع المبرد على ما قال به سيبويه في أغلــب الأحيــان . فكــثرة الشيوع أول ما يظهر عنده على النحو الذى تقدم عند سيبويه، إنه يقــول

---

[١] الكتاب: ٤٧٦/١

[٢] الكتاب: ٨/١

[٣] ٢٨٩/١

مثلا:" اعلم أن هذا الباب إنما معناه: الابتداء والخبر؛ وإنما دخلت كان ، لتخبر أن ذلك وقع فيما مضى، وليس بفعل وصل منك إلى غـــيرك."[١] ويقول أيضا :" وهذه الأفعال صحيحة كضرب، ولكننا أفردنا لها باباً، إذ كان فاعلها ومفعولها يرجعان إلى معنى واحد، وذلك أنك إذا قلت: كـــان عبد الله أخاك . فالأخ هو عبد الله في المعنى."[٢] إننا نلاحظ أنه يذكـــر الباب، ثم يضرب الأمثال بكان. وعلى هذا النحو أمثلة لا نســـتطيع أن نستقصيها.

* ويذكر المبرد زيادة كان في الكلام، فهو يقول:" إن زيـــداً كـــان منطلقـــا. نصبت(زيداً) بإنّ، وجعلت ضميره في كان.. وإن شئت رفعـــت منطلقـــا فيكون رفعه على وجهين:

أحدهما : أن تجعل كان زائدة مؤكدة للكلام؛ نحو قول العـــرب: ولـــدت فاطمة بنة الخُرشُب الكَمَلَة من بنى عبس لم يوجد كان مثلُهم، على إلغـــاء كان. ثم بذكر بيت الززدق:

فكيف إذا رأيتُ ديار قومٍ وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ[٣]

لكن المبرد يرى القول بزيادة كان في هذا البيت على غير ما يـــرى النحاة ، فهو يقول:" وهو عندى على خلاف ما قالوا من إلغاء كان: وذلك أن خبر كان(لنا)، فتقديره: وجيران كرامٍ كانوا لنا .."[٤] . ولكن الشنتمرى يـــرد عليه بأن قوله : لنا ، من صلة الجيران ، ولا يجوز أن يكون خبراً لكان، إلا

---

[١] المقتضب :٩٧/٣

[٢] المقتضب:٨٦/٤

[٣] المقتضب:١١٦/٤

[٤] المقتضب:١١٧/٤

أن تريد معنى الملك ، ولا يصح الملك هنا: لأنهم لم يكونوا لهم ملكا، إنمـــا كانوا لهم جيرانا."[١].

* ويذكر أيضا حذف النون في " يكون" ، فيقول:" أما قولهم: لم يـــكُ فإن الحد لم يكن وهو الوجه.. وكانت تكون الأصل فيما مضى وما لم يقـــع. وذلك قولك:أقام زيد؟ فتقول: قد كان ذاك. وتقول: يقوم زيد، فتقول: يكـــون فكانت العبارة دون غيرها من الأفعال . فقد بانت بعلة ليست في غيرها مـــن أنها عبارة وترجمة ، فحذفت بسكونها استخفافاً."[٢] انظر إلى قوله:" فقد بانت بعلة ليست في غيرها.." إنه التفرد، أو ذلك الاختصاص الذى من أجله كانت أما.

وإذا كان الاسترباذى ، رأينا كلاماً عن معنى النقص في كان، فهو يقول:" وما قال بعضهم من أنها سميت ناقصة لأنها تدل على الزمـــان دون المصدر ، ليس بشئ؛ لأن كان في نحو : كان زيدٌ قائما، يدل علـــى الكـون الذى هو الحصول المطلق، وخبره يدل على الكون المخصوص. وهوكـــون القيام- أى حصوله، فجئ أولاً بلفظ دال على حصول ما ، ثم عين بـــالخبر ذلك الحاصل، فكأنك قلت: حصل شئ، ثم قلت: حصل القيام. فالفـــائدة فـــي إيراد مطلق الحصول أولاً، ثم تخصيصه.. مع فائدة أخرى ههنا، وهى دلالته على تعيين زمان ذلك الحصول المقيد".[٣] وهذا كلام غير معهود في حديـــث النحاة ، قريب من حديث المناطقة فى منزعه للتصور والاستدلال وصـــولاً إلى النتائج. وهو على منزعة هذا أحسب أنه تفسير مقبول لمعنى الشيوع في

---

[١] الكتاب: ١/ ٢٩٠"هامش"

[٢] المقتضب:٣/١٦٧

[٣] ابن الحاجب ت ٦٤٦هـ : الكافيه في النحو .ط الثانية ١٩٧٩م،٢/ ٢٩٠.دار الكتب الجامعية،بيروت لبنان.

الاستعمال، ومن ثمّ فى كونها أماً للباب ذلك من قبل أنها تدل على الحدوث، ثم تخصيص مطلق الحدوث بالخبر الذى يدل على حدث معين واقع في زمان مطلق، وهنا يسمى لنا الاستراباذى دلالتين:

أ- دلالة وضعية : وهى دلالة كان على الكون المطلق.

ب- دلالة عقلية : وهى دلالة الخبر على الزمان المطلق.

والذى يدل على أن منزع الاستراباذى تفسير مقبول للشيوع في استعمال كان وفي كونها أماً كلام الاستراباذى نفسه، إنه يقول :" وأما سائر الأفعال الناقصة ، نحو : صار الدال على الانتقال، وأصبح الدال على الكون في الصبح، أو الانتقال... وما زال الدال على الاستمرار.. وليس الدال على الانتقال، فدلالتها على حدث معين ، لا يدل عليه الخبر."[1] فهذا تفرد في الاستعمال صار اختصاصاً من اختصاصات كان.

ويتابع ابن الحاجب والاستراباذى على زيادة كان، وتكون زيادتها غير مفيدة لشئ إلا التأكيد، ثم يذكر الاستراباذى قول الشاعر:

سُراة بنى أبى بكر تسَامى   على كان المسومة العِرابِ

ويذكر أيضا قول القائل:

في لُجة غمرت أباك بُحُورُها   في الجاهلية كان والإسلام[2]

بيد أننا نجد زيادة كان بلفظ المضارع (يكون) ، حين ذكر ذلك ابن الحاجب بقوله:" وقد أجاز أبو البقاء زيادة مضارع كان في قول حسان:

كأنَّ سَبِيئةً من بيت رأسٍ   يكون مزاجَها عسلٌ وماءٌ

---

[1] الكافيه:٢/٢٩٠

[2] الكافيه:٢/٢٩٤

على رواية رفع مزاجها."[1]

- ويذكر ابن الحاجب حذف نون " يكون" للجزم تشبيها لنونـــها بـــالواو ، فحذفت ، مع أنه قد حذف مثل حركتها للجزم، وذلك لكثرة استعمالها.[2].

وكان عند ابن يعيش " مُقدّمة لأنها أم الأفعال لكثرة دورها وتشـعب مواضعها."[3] . وهى زائدة أيضا " دخولها كخروجها لا عمل لها في اسم ولا خبر."[4] . وهى بمعنى الشأن والحديث. وذلك قولك: كان زيدٌ قائم ، ترفـــع الاسمين معا ، قال الشاعر:

إذا مُتّ كان الناس نصفان شامتٌ   وآخر مثنٍ بالذى كنت أصنعُ

فمن نصب جعلها الناقصة ، ومن رفع جعلها بمعنى الشأن والحديث.[5].

وحذف كان من خصائصها ، فكثيرا ما تحذف" وهى مرادة، وذلـــك لكثرتها في الكلام"[6]. واستشهد النحاة على ذلك بقولهم:" النـــاس مجزيـــون بأعمالهم،إن خيراً فخير، وإنْ شراً فشر."[7] . ثم ذهبوا يؤولون الأوجه فـــي" خير، وشر" على نحو ما جاء في كتب النحو. ومن شواهدهم على ذلك أيضا قول عباس بن مرداس:

أبا خُراشةَ أماّ أنت ذا نفرٍ   فإنّ قومى لم تأكُلْهمّ الضَّبُعُ

---

[1] الكافيه/٢/٢٩٤

[2] انظر الكافيه:٢/٣٠٠

[3] شرح المفصل:٧/٩٠

[4] شرح المفصل:٧/٩٨

[5] شرح المفصل:٩/١٠١

[6] شرح المفصل:٢/٩٧.

[7] شرح المفصل:٢/٩٧

والشاهد فيه نصب " ذا نفر" على أن كان ذانفر.."[١].

ويجمل ابن هشام خصائص كان على نحو من التيسير والوضـــوح ، أحسب أنه لم يُسبق إليه ، فهى :

أ- زائدة بشرطين:

أحدهما : كونها بلفظ الماضى، وشذ قول أم عقيل:

- أنت تكون ماجدُ نبيل*

الثانى : كونها بين شيئين متلازمين ليسا جارا ومجروراً ، نحو : مـا كان أحسن زيداً ، وقول بعضهم : لم يُوجد كــان مثلــهُم . وشذ قوله:

- على كان المسومة العرابِ*

ب- وتحذف على أربعة أوجه:

الأول : وهو الأكثر : أن تحذف مع اسمها ويبقى الخبر، وكثر ذلك بعد"إنْ" و "لو" الشرطيتين.

مثال(إنْ): حَدَبَتْ علىّ بطونُ ضِبَة كلُها إن ظَالّما أبداً وإنْ مظلوماً

مثال(لو) : التمس ولوخاتما من حديد

الثانى : أن تحذف مع خبرها ويبقى الاسم وهو ضعيف.

الثالث : أن تحذف وحدها ، وكثر ذلك بعد أن المصدرية في مثل:

أما أنت منطلقا انطلقت

الرابع : أن تحذف مع معموليها، وذلك بعد" إنْ" فى قولهم:

---

[١] شرح المفصل:٢/٩٩

" افعل هذا إما لا "

أى إن كنت لا تفعل غيره، فما عوض، ولا النافية للخبر [١].

ويوافق الشيخ الآزهرى على ما قاله ابن هشام في حديثه عن اختصاصات كان[٢].

وينقل ابن عقيل عن ابن عصفور" أنها تزاد بين الشيئين المتلازمين"[٣] ، نحو :

أ- المبتدأ والخبر : زيد كان قائم "

ب- الفعل ومرفوعه: لم يوجد كان مثلك

ح- الصلة والموصول: جاء الذى كان أكرمته

د- الصفة والموصوف: مررت برجل كان قائم[٤]

ثم يتابع ابن عقيل على زيادتها وحذفها على النحو الذى قدم عند ابن هشام [٥] . وكذلك يتابع الصبان في حاشيته على شرح الأشمونى.[٦].

---

(١) انظر : أوضح المالك:١/٢٥٥-٢٦٨، المكتبة العصرية/صيدا-بيروت

- أنظر أيضا: الشنقيطى" أحمد بن الأمين" الدر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع،ط الثانية ١٩٧٣م ،دار المعرفة للطباعة والنشر/بيروت/لبنان.

(٢) الأزهرى" خالد بن عبد الله الأزهرى": شرح التصريح على التوضيح: ١/١٩١-١٩٦ الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ المطبعة الأزهرية بمصر.

(٣) ابن عقيل" بهاء الدين عبد الله بن عقيل ت ٧٦٩هـ"شرح ابن عقيل:١/٢٨٨،الطبعة السابعة عشر١٩٧٥م،مكتبة محمد صبيح بمصر

(٤) شرح ابن عقيل: ١/٢٨٨-٢٨٩.

(٥) شرح ابن عقيل:١/٢٨٩-٢٩٧

(٦) الصبان" محمد بن على الصبيان ت ١٢٠٦هـ:حاشية الصبيان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك:١/٢٤٢-٢٤٥ دار إحياء الكتب العربية.

هذه حصيلة الاختصاص في كان ، جاءت على قدر الطاقة ، بعـد أن طوفنا في مصنفات النحاة، ولم يبق إلا التطواف في كتب التفسـير ، لعلنـا نضيف إلى الحصيلة ما يزيد رصيد الدرس، فإلى هناك.

في قول الله عزوجل (... قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيـا) [مريم٢٩].

يقول أبوحيان:" والظاهر أنها - أى كان- ناقصة فتكون بمعنى صار، أو تبقى على مدلولها من اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضى ، ولا يدل ذلك على الانقطاع، كما لم يدل في قوله: وكان الله غفوراً رحيمـاً" . وفـى قوله: ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة)[النساء] والمعنى :كان وهو الآن على ما كان؛ ولذلك عبر بعض أصحابنا عن كان هذه بأنها ترادف لم يـزل."[١] ونقل عن الزمخشرى قوله:" كان لإيقاع مضمون الجملة في زمـان مـاضٍ مُبْهم، يصلح لقريبه وبعيده. وهو ههنا لقريبة خاصة. والدال عليـه معنـى الكلام، وأنه مسوق للتعجب.."[٢] .

من كلام أبى حيان وما نقله عن الزمخشرى نقف على ما يلى:

أولا : كان تكون بمعنى صار.

ثانيا : وتكون بمعنى لم يزل.

ثالثا : إن دلالة كان على اقتران مضمون الجملة بالزمن المـاضى ، ليس دليلا على الانقطاع ، وإنما دليل على المداومة، يدلك على هذا قول ابى حيان في موضع": كان في كثير من الاستعمال تشعر بالمداومـة[٣]. ولذلـك

---

[١] البحر:١٨٧/٦

[٢] البحر:١٨٧/٦

[٣] البحر:٤٩٠/٧

قالوا بأنها في معنى لم يزل . وأحسب أن هذا المعنى قريب منه منزع الاسترابازى فى دلالة كان على مطلق الحدوث المخصص بالخبر الواقع في زمان مطلق.

وفى قوله تعالى (..**إن كيد الشيطان كان ضعيفا**)[النساء٧٦]

يقول أبو حيان:" كان في قوله : كان ضعيفا" إشعار بأن هذا الوصف سابق لكيد الشيطان، وأنه لم يزل ضعيفا. وقيل هى بمعنى صار ضعيفا بالإسلام.." [١]. فهذا .كما رأينا مضمونه أنّ كان تنتظم الزمنَ المطلق من غير انقطاع. وربما دلت" على الانقطاع ،حيث لا يراد الانقطاع"[٢].

ولعلنا نجمل الآن حصيلة الدرس في اختصاص كان بعد هذا النظر في بعض الآيات التى أتينا بها. نقول:

إن الاختصاص الذى أجمع عليه النحاة قد أضاف إليه المفسرون ما يأتى :

أولا : إن كان تكون بمعنى صار، وبمعنى لم يزل.

ثانيا : إن دلالتها على اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضى لا يدل على الانقطاع. ومن ثم فإن الكون فيها كون مطلق.

ثالثا : إنا رأينا منزع الاستراباذى قريب مما قدم المفسرون.

بعد ذلك يمكن أن نجمل المعايير التى استند إليها النحاة فى جعل كان أماً فى الباب على النحو التالى:

١-كثرة الشيوع والاستعمال.

---

(١) البحر:٣/٢٩٦

(٢) البحر: ٣/٢٨

٢-تكون أصلاً لأن يُقاس عليها.

٣-الحذف والزيادة.

٤-دلالة مطلق الحدوث، ثم تخصيص مطلق الحدوث بالخبر الذى يدل على حدث معين واقع فى زمان مطلق.

٥-اتساع التصرف.

والآن نجمل أهم المعايير التى انبنى عليها مفهوم الأم فى الباب النحوى على النحو التالى :

١- الدلالة على وظيفة الباب كله كهمزة الاستفهام ، ومن ثم لا تتصرف إلى معنى آخر.

٢- الصدارة.

٣- كثرة الشيوع والاستعمال . وهذا واضح فى كل الآمات تقريبا.

٤- الأعمال والإلغاء والتكرار والزيادة.

٥- العقد بين الجملتين ، كما فى إن الشرطية.

٦- صلاحية الموضع للقياس كما فى إن الشرطية حيث قاسوا عليها التمنى والاستفهام والأمر والنهى.

٧- التمكن ، وقد أشار النحاة فى غير باب.

٨- تبادل الحمل على المعنى بين الآمات.

٩- معنى الإضافة كما فى باء القسم ، فهى تضيف الحلف إلى المحلوف به.

١٠- الجمع والإشراك.

١١- الاختصاص بالدخول على بعض الألفاظ كاختصاص(يا) فى النداء بلفظ الجلالة.

١٢- اتساع التصرف كما فى كان تمثيلا.

الخاتمة

حقا طال بنا طريق الدرس، حتى إنه لينقاس بالسنين في حساب الزمن ، بين منعطفات المسير وما يكتنفها طورا ، وامتداد النظر بغير قرار طوراً آخر، حتى ليوشك المرء أن يأخذ رأسه بيديه من الدوار.

انقضت هذه السنون على هذا النحو من المسير حتى قدر – بحمد الله – الوصول إلى نهاية الطريق الذى اصطحبنا فيه فكرة الأم في الباب النحوى . حاولنا من خلال هذه الصحبة الوقوف على معنى الأم . وكيف عرض لها النحاة ؟ وما خصائصها كما قدمتها لنا النصوص؟

ولا ننكر أننا أكثرنا من نقل النصوص ، إذ فرضت طبيعة البحث ذلك من قِبَلَ أنّ التعرُّف على معنى الأم وخصائصها في الباب النحوى ، ربما كان فكرة جديدة ، ومن ثم كان لزاما – على ما أرى – أن نعرض لها فى مظانها للوصول إلى حقائق تؤكدها هذه النصوص.

وقد جاء في البحث أن معنى الأم ، هو التفرد في الاختصاص ؛ لذا حاولنا أن نعرض لخصائص كل أم في كل باب لنؤكد على أن الاختصاص تفرد حسب ، وليس من قبيل القول بالأصل والفرع كما ذهب البعض[١]

والحق أن سيبويه قدم لنا خلاصة الدرس حين وصف ما يكثر استعماله بأنه (له نحو ليس لغيره مما هو مثله)[٢] . فذاك تأكيد وجهتنا فى الدرس التى تراءت على أنها مسألة اختصاص في أم الباب ، وأن من أهم الاختصاصات كثرة الشيوع والاستعمال في هذه الأم ومن ثم كان لها نحو ليس لغيرها من أخواتها شبيهاتها في العمل.

---

(١) د. محمد صلاح الدين مصطفى بكر: قضية الأصالة والفرعية في دراسة النحو العربي ص٦٦ وما بعدها ، وص ٩٧ وما بعدها. ذات النطاقين للطباعة والنشر ١٩٩١م.

(٢) الكتاب : ٣١٠/١

على أن ما جاء به سيبويه من أن الذى يكثر استعماله، يكون لـــه نحو خاص ، يفهم عندى على أن كثرة الاستعمال يجـــب أن يؤكدهـــا نحـــو خاص أيضا من الملامح المميزة التى تمثلت لنا في منهج الدرس على أنـــها من اختصاصات الأم . ثم إننا حاولنا تقديم بعض النصوص القرآنية في كـــل فصل من فصول الأم ، تتضمن شروحها تأكيدات على ما ذهب إليه النحـــلة ، أو استدراكات على ما لم يلتفتوا إليه فى غير موضع.

وعلى ذلك يمكن أن نشير هنا إلى أن ملامح الشيوع المميزة هى :

- تمكن قال به المبرد في حديثه عن (أنّ) مثلا ، يفهم على أنه طلاقـــة في الاستعمال ، كأن نرى همزة الاستفهام يأتى بعدها :
- حذف وتكرار في إلا وكان.
- صدارة فى الكلام ، وعدم انصراف إلى معنى غير معنى الباب ، كما في همزة الاستفهام.
- إضمار.
- إلغاء عمل.
- عدم الدلالة على الانقطاع كما فى كان .
- دخول على المثيل في العمل في الباب الواحد.
- الحمل على معنى الغير.

تلك – إذا – أهم الخصائص التى رأيناها ملامح مميزة لكثرة الشيوع والاستعمال وعدت جميعاً على أنها من خصائص الأم فـــي البـــاب النحوى.

والحمد الله والصلاة والسلام على خير خلق الله

صباح يوم الاثنين:العشرون من رمضان١٤٢٣هـــ
الخامس والعشرون من نوفمبر ٢٠٠٢م

سعد حسن حمودة

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

١- أحمدعفيفى (الدكتور): نحو النص - اتجاه جديد في الدرس النحوى، مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠١م/مصر.

٢- الأزهرى (خالد بن عبد الله):
شرح التصريح على التوضيح، الطبعة الثالثة ١٣٤٤هـــ، المطبعة الأزهرية بمصر.

٣- الأنبارى (أبو البركات الأنبارى): أسرار العربية ، طبعـــة ليـــدن ١٨٨٦م.

٤- ابن الحاجب (جمال الدين أبو عمرو عثمان ٥٧٠هــ):
الكافية في المحو، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان.

٥- أبو حيان (محمد بن يوسف ٧٥٤هــ): البحر المحيط ، الطبعة الثانية ١٤١٣هــ دار الكتاب الإسلامى،القاهرة.

٦- الخشاب(أبو محمد عبد الله بن أحمد ت ٥٦٧هــ):
المرتجل ، تحقيق على حيدر، دمشق ١٩٧٢م.

٧-الرمانى (أبو الحسن على بن عيسى ت ٣٨٤هــ):
معانى الحروف، تحقيق الدكتور/عبـــد الفتـــاح شـــلبى،دار نهضة مصر ،القاهرة.

٨-الزمخشرى(جار الله محمود بن عمر ت ٥٣٨هــ):
- الكشاف، دار الكتاب العربى، بيروت ،لبنان
- المفصل ،دار الجيل ١٣٢٣هــ،بيروت،لبنان.

٩- ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل ٣١٦هـ):

الأصول في المحو، الطبعة الثانية ١٩٩٦م،مؤسسة الرسالة ،بيروت.

١٠- السمين(أحمد بن يوسف ت ٧٥٦هـ):

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق الدكتور أحمد الخراط ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م،دار القلم ،دمشق/بيروت.

١١- سيبويه (أبو بشر عمروت ١٨٨هـ):

الكتاب، الطبعة الأولى ١٣١٦هـ بولاق /مصر.

١٢- الشلوبين(أبو على عمر بن محمد بن عمر الآزدى ت ٦٥٤هـ):

شرح المقدمة الجزولية الكبير ، تحقيق الدكتور تركى بن سهو بن نزال العتيبى،الطبعة الثانية ١٩٩٤م، مؤسسة الرسالة.

١٣- الشنقيطى(أحمد بن الأمين):

الدُر اللوامع على همع الهوامع، شرح جمع الجوامع، الطبعة الثانية ١٩٧٣هـ،دار المعرفة للطباعة والنشر/لبنان.

١٤- الصبان(محمد بن على ت ١٢٠٦هـ):

حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك،دار إحياء الكتب العربية.

١٥- ابن عصفور الأشبيلى ت ٦٦٩ هـ :

شرح جمل الزجاج، الشرح الكبير، تحقيق الدكتور صاحب أبو جناح، بدون،دار نشر ، ولا سنة طبع.

١٦-ابن عقيل (بهاء الدين ٧٦٩هـ): شرح ابن عقيل، تحقيق محيى الدين عبد الحسين، بدون ،دار نشر ولا سنة طبع.

١٧- الفراء(أبو زكريا يحيى ت ٢٠٧ هـ):
معانى القرآن ، تحقيق أحمد يوسف نجاتى ،ومحمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

١٨- الفارسى(أبو على الحسن ابن على ت ٣٧٧هـ" التعليقة على كتاب سيبويه، تحقيق الدكتور عوض القوزى،ط الأولى١٩٩١م) دار المعارف بمصر.

١٩- المبرد(أبو العباس محمد بن يزيدت ٢٨٥هـ):
المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب/بيروت.

٢٠- محمد صلاح بكر(الدكتور) : قضية الأصالة والفرعية في دراسة النحو العربى،ذات النطاقين للطباعة والنشر ١٩٩١م .

٢١-محمود فجال(الدكتور):
الحديث النبوى في النحو العربى،الطبعة الأولى ١٩٨٤م،نادى أبها الأدبى.

٢٢- ابن هشام (أبو محمد عبد الله جمال الدين ت ٧٦١هـ):
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، المكتبة العصرية، صيدا ،بيروت.
- مغنى اللبيب، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ،القاهرة.

٢٣- ابن يعيش(موفق الدين ت ٦٤٣هـ):
شرح المفصل ،مكتبة المثنى،القاهرة.

فهرست الموضوعات

رقم الايداع ٣٥٠١ /٢٠٠٣
الناشر
المكتبة العلمية
شارع أحمد ماهر - المنصورة